الفصل الأوّل

مقدّمات واستدراكات

المبحث الأول

لماذا كتاب تطوّر الإستشراق في دراسة التراث الإسلامي؟ أنموذج من الجدل مع الآخر الأكاديمي.

كان لسنوات تحضيري لدرجة الدكتوراه في جامعة لندن (مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية School of Oriental and African Studies (SOAS) بدءًا من سنة ١٩٦٦ الأثر الفعال في إندفاعي نحو متابعة آثار المستشرقين وإسهاماتهم؛ أو لنقل بصيغة أخرى آثار العلماء الغربيين في ميادين ومجالات متعددة من تاريخ المسلمين وحضارتهم منذ القرن الأول الهجري / السابع الميلادي فصاعداً. وعلى الرغم من كون مجال الرسالة الجامعية التي أعدّدتها كان في حقل التمدن الإسلامي ومدينة البصرة أنموذجاً لذلك، فإن تتّبع الدراسات الأجنبية بشأن فلسفة التمدن الإسلامي وبشأن تطوّر المدن الإسلامية خططياً وحضرياً قد وسّع التجربة المعرفية مع المستشرقين لتشمل ميادين متنوعة من التراث الإسلامي السياسي والإقتصادي والحضاري. فضلاً عن هذا علينا عدم إغفال أو نكران الدور المهم والجهود العلمية الرائعة لتلك الأسماء اللامعة من أساتذتنا الذين سعّوا إلى تعريفنا ـ نحن طلبة الدراسات العليا في جامعة بغداد آنذاك ـ بآليات منهج بحث المستشرقين وعلى أسماء المشهورين منهم ومجالات دراساتهم وبحوثهم. ومن باب العرفان لهذا الجميل العلمي نشير إلى عدد من هؤلاء الأساتذة الكرام نظير الجهود القيمة لأستاذنا الكبير المرحوم الدكتور عبد العزيز الدوري وقد تخرج في جامعة لندن (مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية)، وأستاذنا الكبير المرحوم الدكتور صالح أحمد العلي وكنت قد تتّلمذت على يديه فنلت درجة الماجستير في موضوع (الإمارة المزيدية في الحلة) عام ١٩٦٤-١٩٦٥، والأستاذ العلامة المرحوم الدكتور جواد علي، عالم تاريخ العرب قبل الإسلام، ويعدّ رائداً في تقريبه إسهامات المستشرقين حول تاريخ السيرة النبوية الشريفة، في كتابه الصغير الحجم المملوء علماً ومعرفة. والأستاذ الفاضل المرحوم الدكتور محمد الهاشمي الذي يرجع إلى محاضراته الفضل في تحفيزنا للتعرف على المنهج الإستشراقي في تفكيك الرواية التاريخية وتحليلها. والأستاذ المرحوم الدكتور جعفر خصباك الذي يرجع إليه الفضل في تقريب الدراسات الأجنبية عن العراق في العصور العباسية المتأخرة وعن تاريخ المغول وواقعية المعلومات الواردة بشأن هجوم هولاكو على

بغداد على وجه الخصوص. وهناك اساتذة علماء آخرون تغمّد الله الأموات منهم برحمته الواسعة إنه سميع الدعاء.

فلهؤلاء الأعلام الفضل الكبير في التمهيد والتعريف بالمفاصل والتطوّرات المهمة في مناهج بحث المستشرقين عبر محاضراتهم البارعة التي كانت تركّز على تحليل الرواية التاريخية، وعلى بحث النصوص التاريخية بهدف معرفة وتشخيص الغثّ منها والسمين دون كلل ولا ممل. وكانوا، بخلاف ذلك، يتابعون طلبتهم ويتواصلون مع بحوثهم ببحوثهم الخاصة وبمتابعاتهم من أجل أن ترقى الدراسات إلى دراسات ميدانية مشتركة Joint من الجانبين بعيداً جداً عن أي منطلق أو توجّه سياسي أو مذهبي أو إثنيّ للتمييز أو التفريق بيننا،نحن الطلبة، وما زلت لحدّ الآن أتذكر وبفخر واعتزاز كبيرين كيف أن أستاذي المرحوم الدكتور العلي قد نصحني بلّ ووجهني لدراسة موضوع الإمارة المزيدية لأنها إمارة شيعية، ونصح زميلي الآن الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل الموصلي دراسة شخصية عماد الدين زنكي في الموصل ونصح زميلي الآن الأستاذ الدكتور ناجي حسن هادي لدراسة (ثورة زيد بن علي) وهكذا بالنسبة إلى زملائي الآخرين وهم الآن أساتذة. أقول هذا لأنه يؤكد المعيار الذي زرع في قلوبنا وهو معيار حرية الفكر والتسامح مع الآخر المذهبي أو السياسي.

بعدها توجهت اهتماماتي خلال مرحلة الدراسة في بريطانيا الى مساحات معرفية أوسع بخصوص إسهام المستشرقين ليست بالضرورة محددة بحدود رسالتي الزمنية والمكانية بل شمرّت عن ساعدي، للأنتفاع من وجودي في لندن من المكتبات الرائعة في بريطانيا وأوربا في متابعة وملاحقة دراسات المستشرقين وتحليلاتهم قراءة وجمع مادة واستنساخاً من تلك المكتبات. فكانت حصيلة هذه المساعي أن احتفظت بخزين ثمين ومعتبر من المعلومات، وهي التي أفادت كثيراً في فهم ومعرفة أساليب المستشرقين البحثية ومناهجهم وتوجهاتهم الأساس والمهمة وتفسيراتهم للأحداث الساخنة في التاريخ الإسلامي والحضارة. كذلك تعرفّت على آراء العديد من المستشرقين من الجيلين القديم والحديث ومدى الاستمرارية والتواصل في بحوث اللامعين منهم فقد توجهت إلى تأليف عدد من البحوث بشأن الإستشراق والمستشرقين قبل أن تنال فؤوس التخريب والتهديم مكتبتي في أثناء غزو الجيوش الأمريكية والمجاميع التي رافقتها التي كانت تحمل جنسيات أجنبية أو جنسياتها. ولقد تذكّرنا ـ نحن طلبة التاريخ ـ آنذاك قصة الجيوش المغولية التترية بقيادة هولاكو حين دمّرت

مدينة بغداد ومدن عراقية أخرى، ولم تنج من معاول تهديمها ـ أعني الجيوش ـ سوى المدن التي أعلنت عن ولائها للمغول. فيذكر التاريخ كيف أن أهالي مدينة الحلة المزيدية قد سارعوا إلى بغداد لجمع وشراء نفائس المخطوطات والكتب التي لم يعرف المغول ـ عدا العلامة نصير الدين الطوسي وابن الفواطي وغيرهم ـ قدر هذه المكتبات والمخطوطات التي عجّت بها مكتبة الجامعة المستنصرية ومكتبة الوزير العالم ابن العلقمي ومكتبة سابور التي أحياها غرس النعمة بن الصابي ومكتبة الأشراف الرضيّ والمرتضى وغيرهم. وكان حصيلة هذا الغزو أن تشرد الأساتذة والعلماء الأعلام من منازلهم التي صارت طعمة سهلة للغير من الجهلة. وكنت أحد هؤلاء الضحايا فلقد أجبرت على الفرار من منزلي الذي بنيته من أتعابي فلساً فلساً والله أعلم بذلك، والأدهى والأمّر أنني تركت مكتبتي التي وضعت لبناتها من عرق جبيني منذ نعومة أظفاري. تركت كل ذلك مرغماً لأنجو بنفسي وأولادي من مقصلة سيوف الذبح.

ثانياً:- فكان الكتيب الذي أعددّته وقدّمته للنشر منذ عام ١٩٧٩ بعنوان (تطور الإستشراق في دراسة التراث العربي) والذي تمّ طبعه بعد سنتين أي في عام ١٩٨١ في مؤسسة (الموسوعة الصغيرة عدد ٨٥) الرائعة في إنجازاتها. وطبع هذا الكتيب آثار دهشتي آنذاك وذلك لأن تهميشاً وحجباً متعمّداً كان مفروضاً على الأقلام وعلى المؤلفين الجنوبيين (جنوب العراق) موازنة بالانفتاح المطلق تقريباً على الأقلام الأكاديمية وبالأحرى غير الأكاديمية من الباحثين البغادة على وجه الحصر. فكان المؤلف الجنوبي يواجه صعوبة كبيرة كأداء، أمنية وطائفية، في نشر ما لديه من إنتاج فكري. ولا أدلّ على ذلك من أنني قد ألفت مؤلفاً حوّل الواقع الحضاري والتاريخي لجزر ساحل الخليج الشرقي، وهي دراسة اعتمدت في تأليفها الدراسات الأجنبية ودراسات المستشرقين التي لم تترجم. لكنني وجدت صعوبة وعرقلة في نشره وتعضيده، فما كان مني إلّا التوجّه إلى مدير مطبعة جامعة بغداد ليسعى لطبعه ووافق على ذلك شريطة أن يضيف اسمه إلى جانب اسمي كمؤلف ثاني. ووافقت حينها لأنني أردت من الكتاب أن يرى النور، غير أنني فوجئت من الدكتور يضع اسمه في التأليف أولا وذلك لأنه أراد الحصول على مكافأة مالية للتعضيد من جامعة بغداد التي كان ينتمي إليها. مع العلم بأن الكتاب برمته كان من تأليفي، فلماذا؟ لأن الطباعة والنشر والدعم المادي كان متداولا في حلقة ضيقة ومحدودة من باحثي بغداد وجامعتها.

وكتيب تطوّر الإستشراق في واقعه كان ردّ فعل نفسي يكتنفه دون شك الخوف من المجهول أو من المنتظر وقوعه آنذاك، وذلك لأنني سبق أن نشرت بحثاً بعنوان (تاريخ الطبري مصدرا لثورة الزنج في البصرة)[1]. في مجلة المورد الغرّاء برئاسة تحريرها المرحوم الفاضل الأستاذ حميد العلوجي الذي كان ـ ينشر كل جديد ومهّم في التراث الإسلامي بروح علمية سامية وإن اعترض المعترضون من المقوميّن ومن الأقلام المتعصبة وغير المنصفة الذين كانوا يزنون الأمور بميزان طائفي مذهبي وسياسي متعصب. أولئك الذين كانوا يقدّسون الرواية التاريخية المنجزة ويمذهبونها بمذهب المنهج الأموي إرضاء للسلطة السياسية التي كانت تقف بالمرصاد لكل من يحاول كسر الطوق في تحليل الرواية أو إظهار الجوانب السلبية والتحريفية والمزيفة فيها. فانبرى للردّ على بحثي في صيغة طعن حاقد لئيم وسلبي غير منصف أكاديميان هما الدكتور فاروق عمر فوزي والمرحوم الدكتور نوري القيسي متهمين الباحث في البحث المشار إليه بأنه منطلق من منهج استشراقي وهدفه الطعن والتشويه للإسلام والتاريخ الإسلامي، وهي استنتاجات لا وجود لها إطلاقا في البحث. وقد تعمدا في التكثيف والتكرار في الردّ غير العلمي والمبتور وذلك لتحقيق مآربهما في عدّة مقالات. وكان أمراً مروّعاً في حقبة تنفّذت فيها محاكم التفتيش. أقول كان ذلك محنة بالنسبة ليّ وكانت مدة عصيبة جداً ولاسيما حينما امتحن فيها أحد الباحثين عندما ألّف كتابا عن القرامطة. ومع أنه كان يميل سياسياً إلى مذهب السلطة، لكنه امتحن بالمحنة القاسية وهي الموسوم بـ (محنة القرامطة) فكانا ـ سامحهما الله ـ يهدفان من تعريضهما ومقالاتهما التي لا تعرف الحقّ أبداً والتي كانت بعيدة كل البعد عن أي روح علمية أكاديمية، أن يقدماني لهذه المحنة محنة ثورة الزنج لا محنة خلق القرآن.آخذين بنظر الاعتبار أن أحدهما وهو الدكتور فاروق عمر فوزي قد تخرّج في الجامعة نفسها التي تخرّجت فيها ـ جامعة لندن مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية ـ وبإشراف المشرف نفسه البروفسور العالم برنارد لويس. وإنه حينما ترجم أطروحته عن (الثورة العباسية) قد أهداها إلى المستشرق برنارد لويس، وإنه هو نفسه قد تأثر بصورة كاملة بما كان يدعمه المستشرق البريطاني الأمريكي الذائع الصيت السيز هاملتون جب Gibb وكذلك بما ذهب إليه البروفسور المصري ـ البريطاني ـ الدكتور محمد محيي شعبان تلميذ

(١) ناجي، د. عبد الجبار (الطبري مصدراً عن ثورة الزنج) في مجلة المورد عدد ٧ لسنة ١٩٧٨ (وزارة الثقافة).

المستشرق جب بالنسبة إلى دور العرب في خراسان وفي الثورة العباسية لأسباب قومية سياسية شخصية. ثم تحمّل بعد تعينه في جامعة بغداد مسؤولية سياسية في الدفاع عن الرواية الأموية والعباسية، كذلك تزعم مع جمع من الأكاديميين غير المنصفين كتلة أو تياراً وقفوا بالمرصاد ضد أي قلم حرّ أو علمي ولا سيما القلم الجنوبي. ولم يقتصر دور هؤلاء على كبح أي نشاط علمي أو صدّ نشر أي بحث في التاريخ الإسلامي ينهج نهجاً أو يفسر تفسيراً بغير الرؤية الضيّقة التي تزعّموها أو نصّبوا أنفسهم في الدعوة إليها كالذي فعلوه مع الباحث الدكتور حسين قاسم لأنه كتب عن الخرمية معتمداً منهجاً بحثياً تحليلياً أو مع الأستاذ الكبير المرحوم الدكتور فيصل السامر لأنه ألّف كتاباً عن ثورة الزنج أو الدكتور ناجي حسن الذي ألّف بحثاً قيماً مضاداً لتفسير الدكتور فاروق بعنوان الدور العلوي للثورة العباسية فوقف له هذا موقفاً عدائياً، وبوصفه كان يحتل مسؤولية رئاسة قسم التاريخ فإنه سعى إلى اتخاذ إجراء - ينبغي أن يحاسبه الله عليه - في إقصائه وإبعاده من القسم. ومع أن أحد أنصارهم قد انسحب عن انتمائه المذهبي نفاقاً ورياء من أجل نيل رضاهم فصار يعدّ من زعماء التمجيد بالرواية الأموية إلى درجة يمكن توصيفه بعميد الدولة الأموية. إذ وزّع موضوعاتها من خلفاء إلى ولاة إلى أمراء لنيل درجات الماجستير والدكتوراه. مع ذلك لم يسلم هذا الذي نافق على مذهبه من النظرة الإزدرائية من أولئك الذين كانوا يتزعّمون دائرة الفكر والثقافة في العراق؛ ربما بسبب اسمه الذي يعلن بصراحة عن مذهبه وجنسيته.

خلاصة القول فقد فرضت محنة ثورة الزنج عليّ ضغطاً بله تحمساً (وربما خوفاً) من حبال مشانق محاكم التفتيش آنذاك لأن أحشّد جانباً من المعلومات والقصّاصات المكدّسة لتأليف (تطور الإستشراق). وبالفعل فقد اختمرت الفكرة وصنّفت المعلومات لمدة ما بعد عودتي من الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٨بسبب حصولي على إجازة تفرّغ علمي من جامعة البصرة Sabbatical year للقيام بمشروع مشترك مع أستاذ في جامعة تلهاسي في فلوريدا وكان متخصصاً في حقل التمدن الإسلامي في شمال أفريقيا والمغرب العربي. وكان حصيلة سنة التفرّغ العلمي أن قدمت بحثاً موسعاً عن المدينة الإسلامية في دراسات المستشرقين والغربيين[١]. وقدّمت بحثاً آخر نشرته في

---

(١) ناجي، د. عبد الجبار، المدينة العربية الإسلامية في الدراسات الأجنبية (دراسة مقارنة) مجلة المورد (وزارة الثقافة) عدد ٤/ ١٩٨٠.

مجلة JESHO حول السوق في مدينة إسلامية في العصر الوسيط[١].

لقد أفادتني مدّة تحضيري بحث سنة التفرّغ العلمي هذه أيما فائدة، إذ تفرّغت فيها لمتابعة وقراءة مساهمات المستشرقين والباحثين الأمريكان، ليس في مجال دراسات المدن بصورة عامة وإنما بخصوص المدن الإسلامية التي تأسست في العصور الوسطى بشكل أخص. ومن بين ما توصّلت إليه تلك الدراسة أن الدراسات الأمريكية عن المدن الإسلامية قد تحمّل أعباءها علماء الاجتماع الحضري وليس المؤرخين كالحال التي اتسمت بها إسهامات المستشرقين الأوربيين حول التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية والمدن الإسلامية. وتوصّلت الدراسة إلى نتيجة مفادها أن المستشرقين الأمريكان عنوا عناية مركّزة بمفاصل من التاريخ الإسلام السياسي والإقتصادي، فضلاً عن الحضري وكان هؤلاء العلماء في الغالب من النازحين الأوربيين الذين انتقلوا من بريطانيا واسكتلنده وألمانيا ومن الدول الشرقية، عندها فقد تنوّعت التفسيرات والرؤى وتباينت الاتجاهات لتباين المدارس الإستشراقية الأوربية. والمهم فقد كان اهتمام العلماء في الولايات المتحدة ولاسيما المعنيين بقضايا التاريخ القديم Ancient History الذي يشمل التاريخ الإسلامي قليلاً وضعيفاً بالموازنة مع اهتمام المستشرقين الأوربيين. فالمستشرق واشنجتون آرفنج W.Irving[٢]، من روّاد الإستشراق الأمريكي ومؤلف أول تاريخ عن السيرة النبوية بعنوان حياة محمد (The life of Muhammet). لم يكن أرفنج مؤرخاً في نشأته ودراساته في أمريكا بل لم يكن مهتماً بالتاريخ الإسلامي وسير الخلفاء إذ كان أديباً بارعاً وقصّاصاً تميل قصصه إلى الطابع الخيالي. لكنه حينما عيّن ممثلاً أو سفيراً لحكومته في أسبانيا تنقّل في أوربا الوسطى وقرأ مؤلفات المستشرقين البريطانيين الروّاد نظير همفري بريدو Prideau وأوكلي Oclay وجورج سيل Sale صاحب أفضل ترجمة للقرآن الكريم وغوستاف فايل G.Weil الألماني مؤلف كتاب (محمد النبي حياته وعقيدته)

Mohammed der Prophet seineleben und seine lehre

بثلاثة أجزاء. عندئذ اهتم بالكتابة التاريخية فألف عن قصر الحمراء ثم عن حياة

---

(1) Naji, A.J, "The Suqs of Basrah a commercial organization and activity in a medieval Muslim town" in JESGO (Paris 1981).

(2) Stanley, T.William: the life of Washington Irving (New York 1973) pp, 214-217; Irving, Pierre, M. the life and letters of Washington Irving (New York 1862-1864)Pp. 14-15.

النبي محمد وعن غرناطة وعن فتح أسبانيا. وفي أسبانيا انتفع من أحد العلماء أو المترجمين من اليهود أو العرب لترجمة نصوص من السيرة النبوية بتهذيب ابن هشام أو من تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر) الذي كان أوّل من تحقّق من المصادر الإسلامية. ولعله كان متأثرا تأثرا يصل إلى حد التقليد أو التكرار لما وقف عليه المستشرقون الأوربيون من مسائل ساخنة ومهمة حسب الاعتقاد السائد عند المستشرقين في سيرة سيد الأنام. لهذا بالإمكان الحكم على مدى موضوعية آراء ووجهات نظر أرفنج عن زيجات رسول الله وعن الوحي وغير ذلك من أحداث مهمة في تاريخ السيرة النبوية. ثم علينا أن لا نستبعد الاتجاه التبشيري القوي في المرحلة الأولى من توجهات الدراسات الأمريكية. فقد ركّزت الولايات المتحدة في سياساتها إزاء الشرق على إرسال المبشرين والبعثات التبشيرية أولاً ومنذ العقدين الأولين من القرن التاسع عشر. ونشطت هذه البعثات في تأليف اللجان للإشراف على عموم الإرساليات التبشيرية من جزيرة مالطة ثم في سوريا، وفي تأسيس المدارس والكليات، وفي تشجيع تعلم اللغة العربية. فبرز عدد من المبشرين النشيطين في عملية التبشير منهم المستشرق المبشر لانسنك Lansing والمبشر جيمس كنتاين Cantine والمبشر صموئيل زويمر S.Zewmer وغيرهم(١).

ثالثاً: فكان أوّل عمل حققته بعد عودتي من الولايات المتحدة هذا الكتيب (تطوّر الإستشراق) الذي عزمت فيه على الردّ على ذلك الموقف العدائي من قبل أولئك الذين أرادوا بيّ الشرّ والذين خطّطوا لإقصائي. وعندئذ كنت حيال بضعة بدائل في منهج التوجه إزاء الدراسات الإستشراقية، فإما أن يكون الكتاب مسايرا للمنهج السائد بين الباحثين العرب عامّة والباحثين العراقيين ولاسيما في تأليف المؤلفات والبحوث وأقصد المنهج الهجومي والانفعالي إزاء المستشرقين بما تفصح عنه العنوانات التي اختارها الباحثون أمثال :- الإستشراق والاستعمار، أو الإستشراق بين الموضوعية والافتعالية، أو دفاع عن العقيدة والشريعة والسيرة النبوية ضد مطاعن المستشرقين، أو الإستشراق والتبشير، أو سموم الإستشراق، أو دسائس المستشرقين. وهذا منهج مباشر وواضح يظهر موقف الباحث تجاه المستشرقين مسبقاً. أو اتباع المنهج الذي

---

(١) ينظر برايس؛ جيمس: المؤسسات والنظم الأمريكية (ترجمة أنيس صايغ، بيروت ١٩٦٤ص٤٣؛ التميمي؛ عبد المالك: التبشير في منطقة الخليج العربي، المصدر السابق ص ٣٤-٤٠؛ العقيقي، نجيب؛ المستشرقون ج٣ ص١٣٨.

يستند إلى ما يعرف بالقوائم السوداء لأسماء المستشرقين المسيئين أو الكارهين لتراث أمتنا الإسلامية ولسيرة الرسول، والقوائم البيضاء بأسماء المستشرقين المنصفين والمعتدلين. وهو تصنيف يظهر مواقف نسبية أو شخصية سياسية أو مواقف تقليدية ومتكرّرة دون إطلاع على مؤلفات المستشرقين السيئين منهم أو المنصفين على حدّ سواء، لذا نجدها قوائم متذبذبة ومتناقضة تبعاً لتلك المواقف والميول. وإما اتباع منهج الدراسات الشخصية للمستشرقين تبعاً لبلدانهم أو المدارس الإستشراقية التي ينتمون إليها، كالمستشرقين البريطانيين أو المستشرقين الهولنديين وما إلى ذلك. وهو منهج وصفي أكثر من كونه منهجا بحثيا تحليليا حول أهداف المستشرقين ودوافعهم. وإما التركيز على تفسيرات المستشرقين وآرائهم بشأن الموضوعات المثيرة للجدّل في تراثنا الإسلامي كالسيرة النبوية والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وغيرها. وإما التركّيز على الموضوع المعروف وهي الأسباب التي دفعت بالمستشرقين إلى دراسة تراث وحضارة الآخر المتمثل بالإسلام. فهناك باحثون يقصرون الدوافع هذه بالدوافع التبشيرية وآخرون يختصرونها بالدوافع السياسية والاستعمارية (ولاسيما المخابراتية منها) أو الدوافع الحضارية مشددين على ما يذهب إليه المستشرقون من نظرية استعلاء الحضارة الغربية على الحضارة الإسلامية؛ والنظرية التي تشير إلى إنكار الدور الحضاري للإسلام وإرجاع أكثر ما تتميّز به الحضارة الإسلامية من منجزات إلى أوربا أوالى الحضارتين اليونانية والرومانية.

فالمنهج الذي أخذنا به هو منهج لعله يتميّز بالإستقلالية إلى حدٍّ ما وبالموضوعية - حسب اعتقادنا - من جهة أخرى ألا وهو عرض لتطوّر المواقف والإتجاهات الإستشراقية تبعاً للمراحل التاريخية منذ القدم حتى الوقت الراهن. ذلك التطوّر كان يرافقه - كما سنشهد في الصفحات الآتية - تطوّرا في العلاقات والروابط والمواقف السياسية والإقتصادية فضلاً عن الدينية بما يتعلق الأمر باعتراف الكنيسة الكاثوليكية في روما، ومن ثم اعتراف الديانة الغربية المسيحية والديانة اليهودية بقوة الدين الإسلامي وفاعليته كقوة منافسة أو كقوة متقابلة على حدّ سواء. والإعتراف من الديانتين بالنجاحات المظفّرة لامتدادات الدين الإسلامي الواسعة في آسيا وأوربا وأمريكا بالقدر الذي نهض به عدد من المؤلفين الأوربيين والأمريكيين في التأليف عن الإسلام ديناً وحضارة بوصفه الدين الثاني في أوربا أو عن الإسلام في أمريكا أو الإسلام في روسيا. كذلك شرع الأوربيون بالتعامل مع الإسلام على وفق الصيغة

والنظرية التي نسبت إلى صموئيل هنتغتن وهي نظرية الصراع الحضاري بين الإسلام + الكونفوشستية ضدّاً بالمسيحية الغربية + اليهودية.

بهذا التصوّر والمنهج تمّ بناء فصول الكتاب بعيداً إلى الحدّ المقبول من أن يتوجّه بشكل خاص ومميّز نحو بيان الانتقادات والسلبيات أو بما يعرف عندنا بالتخرصات ـ كما عهدناها في الكتابات العربية عن المستشرقين عامة ـ في تفسيرات المستشرقين ورؤاهم إزاء القرآن الكريم والسيرة النبوية والإكتفاء بالدفاع عنهما إزاء تخرصاتهم وتفسيراتهم. وهذا يرجع إلى سبب مفاده الفهم الخاطىء، عند أغلب باحثينا في العراق، المستند إلى محدودية الإطّلاع على فلسفات المستشرقين وتوجّهاتهم ودوافعهم وميادين نشاطاتهم العلمية. فأكثر الباحثين في العراق إبان الحقب المنصرمة كانوا يعتقدون ـ وربما كانوا على وهم ـ بأن جميع المستشرقين دون استثناء هم محرّفون ودسّاسون ومتخرصون وسيئوا الصيت إزاء دراساتهم للسيرة النبوية الشريفة. فالملاحظ عدم صحّة المعادلة السابقة لكون الكثير من المستشرقين أو العلماء الغربيين قد حقّقوا في مجالات علمية وألّفوا الكتب والبحوث حول منجزات العلماء المسلمين في ميادين لا علاقة لها بالأحداث التاريخية السياسية، إنّما لها علاقة بعلوم إسلامية محض في الفلسفة والمنطق وفي الكيمياء والفيزياء وعلم الميكانيكا وفي الفلك والنجوم والأرصاد وصنع الأزياج وفي الرياضيات والجبر والمقابلة وفي الحيوان والنبات وفي دور المسلمين في تعدين المعادن وفي الطب بأغلب فروعه وفي الصيدلة وتركيب الأدوية المفردة والمركبة وفي المجال الحضري والتمدني وفي مجال البحث التاريخي ومناهجه عند العلماء المسلمين وفي تراجم المؤرخين والأدباء وغير ذلك من حقول معرفية علمية بعيدة جداً عن الميدان الوحيد الذي كان وما يزال مرافقاً وعلى طول الخطّ مع مصطلح المستشرقين والإستشراق ذلك الذي أشرنا إليه آنفا. ناهيك عن القول بشأن إسهام المستشرقين منذ القرن السابع عشر للميلاد ـ وهو إسهام يصعب نكرانه ـ في تحقيق ذخائر المخطوطات الإسلامية تحقيقاً علمياً متقناً بما نعرفه بالدراسات النقدية للمخطوطة من حيث المؤلف والمتن لمعرفة مصداقية نسبة هذه المخطوطة أو تلك إلى مؤلفها وأسلوب كتابتها ومنهجها في عرض محتوياتها. والأهم من ذلك صنع فهارس لهذه التحقيقات يتجّسد فيها عنصر الإبداع والدقّة والشمولية حتى أن بعض التحقيقات العربية التي تحقّقت بعد الطبعات الأوربية المحقّقة أصلا جاءت مقلّدة حرفياً أو تقليداً للمنهج المتّبع من قبل المستشرق المحقّق الأصلي.

كما هو الحال في تحقيق الأستاذ المرحوم محمد أبو الفضل إبراهيم لتاريخ الطبري (الرسل والملوك) فإنه يعدّ نسخة من الطبعة الأوربية، طبعة ليدن. كذلك ما حقّقه المستشرق فنسنك للحديث النبوي الشريف وتحقيق معجم البلدان لياقوت الحموي. والخلاصة فقد كانت أعمال تحقيق تفوق الوصف ولا تقارن بالتحقيقات الحديثة العربية التي هي في واقعها مجرّد نشر للمخطوطة مع بعض التعليقات. كذلك نشير إلى تحقيق المستشرق دنلوب Dunlop لكتاب أبي معشر الفلكي (المذاكرات في علم النجوم) والى المقدّمة التحليلية المقارنة بين هذا الفلكي والفلكيين المسلمين الآخرين. وغيرها من التحقيقات الكثيرة التي لا علاقة لها بالتوصيف الجاهز للمستشرقين بأنهم محرّفون وعناصر مخابراتية أو أدوات تبشيرية أو عملاء للاستعمار وما إلى ذلك من نعوت دأب على الوقوف عليها.

بهذه الأفكار تشجّع القلم لكتابة هذا الكتاب ويكون ردّاً حضارياً علمياً ومباشراً الى أقلام الأستاذين الأكاديميين المذكورين آنفا. والجدير بالذكر أن أحدهما قد كان أستاذي في مرحلة المتوسطة وكنت لذلك أكنّ له احتراما وتقديراً لأنه درّسني في مرحلة الشباب؛ وقد وجهت إليه دعوة لحضور مؤتمر عقد في مركز دراسات الخليج العربي في جامعة البصرة واستقبلته بحفاوة وتقدير وهو الدكتور نوري حمودي القيسي. ففي جلسة افتتاح المؤتمر كنت إلى جانبه فهمس في إذني، والله يشهد على ذلك، قائلا : ((جبار لقد كتبت ردّاً على بحثك - أي ثورة الزنج - سوف يؤدي إلى إعدامك؟! فاجبته ببرود وخوف لماذا أستاذ؟! فإن كان نقداً علمياً بنّاء فإنني سأكون ممتناً لأنه يفيدني في طريق البحث؛ إما إن لم يكن كذلك فسامحك الله على أية حال)).

فضلاً عن ذلك فإن المحاججة مع تلك الأقلام المتعسّفة والمتظاهرة بالعلمية تقتضي التساؤل لماذا ينسب هذان الأستاذان الأكاديميان وغيرهما منهج تحليل الرواية التاريخية وتفكيكها بهدف الوصول إلى مواضع التزييف والتحريف فيها إلى كونه منهجا ينسب إلى الإستشراق والمستشرقين حصراً؟! ألم يفصح المؤرخ الطبري عن منهجه في كتابة (تاريخ الرسل والملوك) بقوله ((وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما حضرت ذكره مما شرطت أني راسمه فيه إنمّا هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه دون ما أدرك بحجج العقول وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل إذ كان العلم بما كان من أخبار

الماضين وما هو كائن من أنباء الحادثين غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والإستنباط بفكر النفوس، وأن ما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً من الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم، أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا وإنمّا أتيّ من قبل بعض ناقليه إلينا، وأنّا إنمّا أدينّا ذلك على نحو ما أديّ إليّنا))[1]. فهل في هذا الإعلان الصريح أي غموض أو شائبة بالنسبة إلى موقف المؤرخ الطبري من المرويات التاريخية؟ فالمؤرخ الطبري الذي جعلته في بحثي مصدراً رئيساً عن ثورة الزنج قد أوضح بأن ما أورده في تاريخه إن هو إلا مرويّات قد وصلته عن طريق الناقلين والرواة، وكان دوره مقصوراً على نقله إلينا فقط كما نقل إليه. فهو- في هذا المجال - يضع أمام القارىء والباحث كتاباً - أقصد تاريخه - يحتوي على مجموعة من المرويّات المسندة بسلسلة طويلة ومعقدة أحيانا من الرواة غير أنه من المؤسف ((لم يعرف لها وجّهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة)). والمؤرخ الطبري نادراً ما يتدخل في سرد المرويات أو في الإستنتاج عن علل حدوث الأحدّاث وذلك لأنها أحدّاث ترجع إلى حقب زمنية بعيدة أبعد من حقبته وزمانه. وطالما كان ذلك متعذراً عليه ولا سبيل لذكرها إلا اعتماداً على سلسلة من الرواة، عندها تكون مدى المصداقية والصحّة في هذه الرواية أو تلك أمر يعتمد على جرح رواتها لبيان مدى مصداقيتهم سواء أكان ذلك بخصوص اسم الراوية أم مكانته العلمية أم مدى الثقة به أم الإطمئنان إلى أخباره حال صعبة جداً ومعقدة لأن وسائل وطرق التحريف والإضافة والتشويه والتزوير والتحسين والتلطيف في محتوى المرويات لكي تفيد هدف الراوية ودافعه أمر هو الآخر معقد ومتغلغل في نسيج ومتن الرواية وسندها. أقول، هل كان المؤرخ الطبري متأثرا بمنهج المستشرقين حينما أفصح عن موقفه ذاك بتلك التعبيرات النقدية الرائعة؟ فمنهج الطبري يتضمن أسّساً مباشرة وهامّة بخصوص الأمانة العلمية والصدقية في نقل المعلومات والتجرّد من التحزب لرواية تاريخية دون أخرى ولا سيما تلك المتعلقة منها بالأحداث التاريخية السياسية الساخنة التي حدثت في التاريخ الإسلامي. كان الطبري في كلامه ذلك يتطلّع إلى ممارسة عملية في إدخال عناصر الإستنتاج والاستدلال والإستنباط بفكر النفوس.

ويقف الموسوعي المسعودي على هذا الجانب معلناً عن موقفه إزاء هذه الإشكالية

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (مصر) ج١، ص ٧-٨.

في منهج البحث، وواقع الحال فإنه انتقد أولاً المؤلفات التاريخية التي عاصر زمن تأليفها (أي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) فقد رجّح في بنائه المصدري لمروج الذهب الثقات من الرواة قائلاً: ((ولم نذكر من كتب التواريخ والسير والآثار إلا ما أشتهر مصنّفوها وعرف مؤلفوها))[1]. ثم يردف قائلا في مجال آخر من كتابه المروج ما نصّه: ((فإنّا وجدنا مصنفيّ الكتب في ذلك مجيداً ومقصّراً، ومسهباً ومختصّراً، ووجدنّا الأخبار زائدة على زيادة الأيام، حادثة على حدوث الأزمان، وربما غالب البارع منها على الفطن الذكي، ولكل واحد قسط يخصّه بمقدار عنايته))[2].

وزيادة في توكيد منهج المؤرخين المسلمين النقدي للمؤلفات ورواتها نستشهد بما دوّنه الوزير أبو شجاع الروذراوري في القرن نفسه حين وصف الكتاب القيّم الذي صنّفه أبا علي أحمد مسكويه، تجارب الأمم وعواقب الهمّم، قائلا بحقّه: ((فرحم الله مصنّفه، يعني مسكويه، وأجزل في الآخرة أجره... فقد اختار فأحسن الاختيار وفحص فأتيّ بزبد الأخبار، وسلك سبيلاً وسطاً بين التطويل والاختصار، ثم لم يقنع بذلك حتى قرّب مسالك الطرق البعيدة. وبرّز من في أثناء الاختيار ذكر الآراء السديدة. ونبّه فيها على مقامات حميدة))[3]. ولهذا فإنه ـ أي أبو شجاع الروذراوري ـ شدّد على منهجه بالكلمات الآتية قائلا: ((فأعود الآن إلى ذكر ما أنا قاصده من الاختيار متبرئاً من عهدة ما أورده من الأخبار لأني أتّبع في كتاب التاريخ مسطورها، فاختار بحسب المعرفة عقودها وميسورها. وما عساه يندر من خبر شاذ تلقف من أفواه الرجال، وخلا التاريخ من ذكره إما بخفاء أو نسيان أو إغفال فإنه يثبت في بواطنه وينظم مع قرائنه. وإذا انتهيت إن شاء الله سبحانه إلى أخبار زماننا أتّسع المجال وأمكن المقال. وعمدت حينئذ إلى ما شاهدناه وخبرناه فأخبرت به على وجهه وذكرته مجتهداً في التحري وبحسب الإمكان الذي لا أقدر على سواه. وبقدر الوسع الذي لا يكلّف الله نفساً إلّا إياه))[4]. وهذا أيضا كلام جميل جداً في إبراز قدرة المؤرّخ ومدى حصافته في التركّيز

---

(١) المسعودي، مروج الذهب ومعان الجوهر، شرح وتقديم د. مفيد محمد قميمة بيروت، دار الكتب العلمية، ج١، ص ١٢، ٤٦.

(٢) ن.م. ص ١٢.

(٣) الروذراوري، أبو شجاع، ذيل تجارب الأمم، اعتناء أمدروز (مصر ١٩١٦، جزء ٣ ص٥).

(٤) ن. م. ج٣ ص٨.

على ما عاصره من أحداث، وكذلك في إبراز موقفه المتشدّد من المرويات والأخبار الفائتة في زمانها. وهو منهج قد وقف عليه المؤرخ ابن الاثير في كتابه (الكامل في التاريخ) إذ ينوّه إلى الأسباب التي دعته إلى تصنيف (الكامل) بالعبارة الآتية ((فلمّا رأيت الأمر كذلك ـ وهنا يقصد بهذه العبارة المؤلفات التاريخية المصنّفة قبل زمانه أو المعاصرة له لكنها كانت ضيقة الأفق ومحدودة في أخبار حوادثها ـ شرعت في تأليف تاريخ جامع ـ وهنا يقصد التاريخ الشامل الكامل في التاريخ ـ لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينها ليكون تذكرة لي أراجعه خوف النسيان، وأتي فيه بالحوادث والكائنات من أوّل الزمان، متابعة يتلو بعضها بعضاً إلى وقتنا هذا ـ أي القرن السابع الهجري))[(١)].

فضلا عن وذاك ندلي ببعض الآراء النقدية الأخرى للعلماء المسلمين تلك التي تتخطى مدلولاتها المنهج الذي اتّبعه المستشرقون في القدرة على التحليل والنقد والتجريح للرواية أو لراويتها على حدّ سواء. فعندما عرض العلّامة ابن الجوزي وصفا عن حياة العلّامة الخطيب البغدادي صاحب المؤلفات الكثيرة ومن أهمها كتابه (تاريخ بغداد أو مدينة السلام) خلال سرده تراجم العلماء المتوفى سنة ٤٦٣هـ يعلق على كثرة مصنّفات الخطيب قائلا : ((وقد روي لنا عن أبي الحسين ابن الطيوري أنه قال أكثر كتب الخطيب مستفادة من كتب الصوري))[(٢)]. بعدها يوجّه ابن الجوزي نقداً للخطيب البغدادي ينطوي على اندفاع وهجوم مذهبي طائفي فيبين موقفه قائلا : ((وكان أبو بكر الخطيب قديماً على مذهب أحمد بن حنبل فمال عليه أصحابنا لمّا رأوا من ميله إلى المبتدعة وأذوه فأنتقل إلى مذهب الشافعي وتعصّب في تصانيفه عليهم فرمز إلى ذمّهم وصرّح ما أمكنه فقال في ترجمة أحمد بن حنبل سيّد المحدثين وفي ترجمة الشافعي تاجّ الفقهاء، فلم يذكر أحمد بالفقه))[(٣)]. ويبدأ ابن الجوزي بتدوين المطاعن والانتقادات للخطيب البغدادي في الصفحة نفسها والتي أعقبتها مبيّناً الطعن والتحجيم لآرائه بخصوص أصحاب الأمام أحمد بن حنبل أمثال المهنأ بن يحيى الذي أطرى عليه الدار قطني ومدحه في الوقت الذي وقف منه الخطيب البغدادي موقف الذمّ. كذلك بشأن ابن برهان الأسدي وعلي بن أبي عبد الله بن بطّة وغيرهم. وفي حال

---

(١) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج١ ص ٥.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم ج٨ ص ٢٦٦.

(٣) م.ن. ج٨ ص ٢٦٧-٢٦٨.

أخرى يدلي ابن الجوزي برأيه الناقد للخطيب البغدادي معلّلاً موقفه إذ قال: ((كان في الخطيب شيئان أحدهما الجري على عادة عوّام المحدّثين في الجرح والتعديل فإنهم يجرّحون بما ليس بجرح وذلك لقلّة فهمهم، والثاني التعصّب على مذهب أحمد وأصحابه))[1].

من جانب آخر يعلّق على كتاب العالم السمعاني (صاحب الأنساب) في كتاب له عنوانه (الجهر)، بأنه قد ذكر أحاديث نعلم أنها لا تصحّ وفي كتاب (القنوت) أيضاً. وأنه ذكر أحاديث في مسألة صوم الغيم حديثاً يدري أنه موضوع فاحتجّ به. وابن الجوزي ينعت السمعاني بالكذب على رسول الله بإيراده حديثا كاذبا إذ يقول ما نصّه: ((وقد كشف عن جميع ذلك ـ أي سرد الأحاديث الكاذبة التي رواها السمعاني ـ في كتاب التحقيق في أحاديث التعليق وتعصّبه على ابن المذّهب، ولأهل البدع مألوف عنه وقد بان من قبلنا))[2].

ومن تعليلاته التي تظهر موقفه المذهبي المتشنّج وغير المنصف الرواية التي أتى على ذكرها في ذمّ مرويات الخطيب البغدادي والطعن بها وذلك عن طريق نقله ودعمه لقول العالم إسماعيل بن أبي الفضل القومسي، وكان من أهل المعرفة بالحديث قال ما نصّه: ((ثلاثة من الحفّاظ لا أحبّهم لشدة تعصبهم وقلّة إنصافهم:- الحاكم أبو عبد الله ـ ويقصد بذلك الحاكم النيسابوري ـ وأبو نعيم الأصبهاني وأبو بكر الخطيب، قال المصنف ـ يعني ابن الجوزي ـ لقد صدق إسماعيل وقد كان ـ والإشارة إلى الخطيب البغدادي ـ من كبار الحفّاظ ثقة صدوقاً له معرفة حسنة بالرجال والمتون عبر الديانة. وقال ـ يعني ابن الجوزي ـ الحقّ فإن الحاكم كان متشيعاً ظاهر التشيع، والآخران كانا يتعصّبان للمتكلمين الأشاعرة وما يليق هذا بأصحاب الحديث لأن الحديث جاء في ذمّ الكلام))[3]. فحسب ما تحدّث به ابن الجوزي عن الخطيب البغدادي فإنه يشدّد على جملة أدلّة تؤكّد صحة تعصّب الخطيب البغدادي من جهة وعلى صحّة طعن ابن الجوزي للخطيب من جهة أخرى. فالخطيب ـ كما يرى ابن الجوزي ـ طعن العالم عبد القادر لأنه كان يلقي الدرس المشتسكه (؟ كذا وردت)، وإنّما كان ـ حسب ردّ ابن

---

(١) م.ن. ص ٢٦٨-٢٦٩.

(٢) م.ن. ج٨ ص ٢٦٨-٢٦٩.

(٣) م.ن. ج٨ ص٢٦٩.

الجوزي ـ رجلاً مريض العين. إما طعن الخطيب لمحمد بن ناصر شيخ ابن الجوزي، فقد ردّ عليه ابن الجوزي قائلا : إن الخطيب (يحبّ الطعن في الناس) مع أنه (أخذ أكثر كتبه منه). وقوله إن الخطيب البغدادي احتجّ بقوله في الجرح والتعديل ((فقد أزرى بما قال على نفسه في كلّ ما أورده عنه من جرح وتعديل وما كان ينبغي أن يحتجّ به في شيء ثم قد كان يلزمه أن يقول طعن فلان وليس بموضع الطعن وأي شغل للحديث غير الجرح والتعديل، فمن عدّ ذلك طعناً مذموماً إنما عرف العلم. فشفى أبو سعد ـ يعني السمعاني ـ غيظه بما لا معنى فيه في كتابه فلم يرزق نشره لسوء قصده [يلاحظ هنا في قول ابن الجوزي كيف أن العلماء لسبب مذهبي يقفون حائلاً أمام نشر أو شيوع الكتاب المعارض لمذهبهم. وتعقيبه لسوء قصده يشير إلى أن ابن الجوزي كان مسروراً لما فرض من قيود على نشر كتاب العالم السمعاني) فتوفي ـ يعني السمعاني ـ وما بلغ الأمل ـ يقصد عدم شيوع كتبه أو نشرها ـ ولو أن متتبعاً يتّبع ما في كتابه من الأغاليط والأنساب المختلطة ووفاة قوم هم في الأحياء لأخرج أشياء كثيرة غير أن الزمان أشرف من أن يضيع[1] في مثل هذا)). إنه كلام خشن وقاسٍ جدا بحق السمعاني مؤلف الكتاب الضخم في حجمه وفي علمه (الأنساب). والكلام يكشف بما لا يقبل الشك عن كره ابن الجوزي وبغضه وحقده للسمعاني، فضلاً عن أنه يكشف للقارىء والمتتبّع منهجاً في نقد الرجال والعلماء هو أشد قسوة من المواقف الإستشراقية في تحليل المرويّات وتفكيكها وصولاً إلى مواطن الضعف والكذب فيها. وطعن ابن الجوزي وردود فعله مبنية في لحمتها وسداها على الحقد الطائفي من أجل تدمير الآخر المعارض لمذهبه. ألا ترى أيها القارئ اللبيب أنه اتّبع منهجاً إستشراقياً في الطعن بالخطيب البغدادي والسمعاني، ولكن الأهم من ذلك كلّه لماذا فعل ذلك وهو العالم والمؤرخ المشهور؟ والجواب لا لشيء سوى أن السمعاني كان يميل إلى مذهب يخالف مذهب ابن الجوزي الحنبلي؛ ولأن السمعاني ـ شأنه في ذلك شأن المؤرخ الطبري ـ كان يعتقد بأن الأمام أحمد بن حنبل محدّث لا فقيه، فثارت عندئذ ثائرة ابن الجوزي وأنصار المذهب الحنبلي في الردّ عليه والطعن في كتابه. وممّا يثير الدهشة في تعقيب ابن الجوزي على أن السمعاني قد كان يميل إلى المبتدعة لهذا كان يقف ضدّه؟. لكن ابن الجوزي لم يفصح عن طبيعة المبتدعة هذه، ومن هم وما مذهبهم؟ إنهم أشاعرة أم معتزلة أم شيعة؟ وأحسب ـ اعتماداً على المواصفات التي

(١) ابن الجوزي؛ المنتظم ج١٠ص ٢٢٤-٢٢٥.

فرضها ابن الجوزي نفسه على العلماء الإمامية وعلماء الشيعة والمعتزلة بأنهم أهل بدعة وضلال ـ أنه يقصد بالمبتدعة بالنسبة إلى السمعاني أو غيره عندما تحول من المذهب الحنبلي إلى التشيع أو إلى الاعتزال.فالتحول عن المذهب هو الذي جعل موقف ابن الجوزي متشنّجاً وإستشراقياً من السمعاني، وبناء على هذا الموقف الذي ـ ربما ـ يشكل خطراً على السمعاني ـ كما هو الحال بالنسبة إلى المؤرخ الطبري ـ اضطّر إلى الإنسحاب من المذهب الجديد ـ للتخلص من خطر تهمة البدعة والضلال ـ إلى المذهب الشافعي وهو أخفّ عليه من حيث الحقد والبغض من المذهب الشيعي الإمامي. ومع هذا القرار في الإنسحاب من ميدان المعركة بين العلماء الذين نعتمد مؤلفاتهم ومناهجهم البحثية ومن المعتقد الذي مال إليه السمعاني فإنه لم يستطع وضع نهاية للمشكلة إذ ظلّ السمعاني يثير بغض ابن الجوزي وأصحابه في المذهب ويثير كرههم.

لم يقتصر موقف ابن الجوزي الناقد على المثالين السابقين فهناك نماذج أخرى من العلماء الذين كانوا في قوائم ابن الجوزي السوداء. وأبو حامد الغزّالي مثال ثالث يظهر مدى تشنّج ابن الجوزي وحقده وطعنه للآخر الذي يخالفه في المذهب، وإن كان هذا الآخر عالما سنياً معروفا. ففي ترجمة حياة الغزّالي عندما ذكر ابن الجوزي ترجمته في سنة ٥٠٥هـ. ففيها يبدأ مدحه لعلميته فقال:- ((إنه برع في النظر .. وتوحّد وصنّف الكتب الحسان في الأصول والفروع التي انفرد بحسن وضعها وترتيبها وتحقيق الكلام فيها[١])). لكن ابن الجوزي غيّر بسرعة جدا من لهجته في المدح والإطراء إلى الذمّ والقدّح ولاسيما حينما بدّل الغزّالي مذهبه الحنبلي كما قال ابن الجوزي، ((فلبس الخام الغليظ ولازم الصوم وتصوف)). عندئذ يبدأ ابن الجوزي بتسقط أخبار الغزّالي فقال : ((انهترك فيه ـ والإشارة هنا إلى كتاب إحياء علوم الدين ـ قانون الفقه. . . . وقد جمعت ـ يعني ابن الجوزي ـ أغلاط الكتاب وسميّته أعلام الأحياء بأغلاط الإحياء) ثم يشير إليه مرّة ثانية بقوله : ((وكان بعض الناس شغف بكتاب الإحياء فأعلمته بعيوبه ثم كتبته له فأسقطت ما يصلح إسقاطه وزدت ما يصلح أن يزاد))[٢].

---

(١) ابن الجوزي؛ المنظم ج٩ ص١٦٨.

(٢) م.ن. ج٩ ص١٧٠.

فيا ترى ما موقف الأستاذين الأكاديميين، ونحن في القرن الواحد والعشرين، إزاء كلّ من يحاول قراءة تاريخ الطبري في موضوعات كالحركات والثورات المعادية للتسلّط العباسي ولظلم العباسيين وتعسفهم ضدّ من يخالفهم أو ضدّ من يعارض المذهب الحنبلي لا من قبل الفرق السنية الأخرى بل من قبل أبناء عمومتهم أولئك ممن لهم شرف الأصالة في النسبة إلى الإسلام وإلى نبيه الأكرم؟ فالملاحظ أن العباسيين قد بنوا أمجادهم على أكتاف أهل البيتوكذلك موقفهم من المعتزلة الذين نصب لهم المتوكل ـ الخليفة الضيّق الأفق ـ ومن أعقبه من الخلفاء محاكماً للتفتيش والقتل والتعذيب والإقصاء.

ولا أريد الإطالة في هذا المنحى الشخصي إزاء الكثير من أكاديميينا في الوقت الراهن ـ مع الأسف الشديد ـ غير أن الذي يطمع بالمزيد عن مواقف كهذه وأعني المنهج أو الموقف العباسي المتشنّج ضدّ الآخر سواء أكان هذا الآخر شيعياً أم معتزلياً أم شافعياً أم أشعرياً. فجميع هذه الآراء والمذاهب كانت في نظر العباسيين الأدوات التي اعتمدوا عليها ممّن هيّمن على الفكر والثقافة وممّن فرض منهجاً خاصاً به دون غيره في تدوين الرواية التاريخية العباسية

فأقول ثانية إن هدف هذا الكتاب عن الإستشراق والمستشرقين ـ في بداية أمره ـ كان يدور حول هشاشة المفاهيم التي تقمّصها، وعرّف هويته على أساسها، عدد من الأساتذة الأكاديميين، ممّن اعتقد بنفسه أو ممّن خلق لنفسه هالة ووهماً بأنهم حماة الإسلام والعروبة والكتابة التاريخية. إنه أسلوب ذكي من جانبهم، كما كان ذكياً منذ بداية التدوين التاريخي إذ اختمرت مروياتهم، وظلّت حيّة ـ بسبب رعاتهم من الرواة المدلّسين ـ تفسيراتهم، وهيّمنت ـ بقوة السلطتين الأموية والعباسية ـ مواقفهم السلبية على المواقف الصحيحة والإيجابية. وأضحى من الصعوبة بمكان للفرد وحده أن يتحمّل مسؤولية إعادة النصاب إلى حقّه بتضعيف وتقويض مباني مرويّات عروة بن الزبير وابنه هشام وابن شهاب الزهري وبعدهم مرويات أنصار الرواية العباسية أو على الأقل تهذيب التدوين التاريخي مما علق به من مساوىء هذه المرويات التي نعلّق الأخطاء ـ خطأًـ على شمّاعة المستشرقين بينما هي مرويّات قد رواها ودوّنها وألّفها كتباً رواة السلطة ومؤرخيها.

ومثالاً على ذلك دراسة المستشرق الدانمركي بيترسن Petersen حول الصراع بين

الأمام علي ومعاوية[1] بن أبي سفيان. فهي دراسة للمرويّات التاريخية المبكرة المتعلقة بمعركة صفين. وهي دراسة تحليلية وتفكيكية للمرويّات وتوصّلت إلى نتائج باهرة من أهمها :- أن الروايات التاريخية المبكرة قد استندت إلى مرويات عبر القرن الأول للهجرة / السابع للميلاد وقد تدخّلت فيها عناصر من التشويه والتحريف والإضافة والتعديل لتلائم الحدث المروي، لذلك يفيد المستشرق بأنها لم تعدّ هي المرويات الأصلية.فضلاً عن أنها في أصل وجودها وروايتها قد رواها وتناقل روايتها مجموعة من الرواة المتهمين بالكذب أو بعدم الثقة أو بكونهم ضعفاء لا يمكن تصديق رواياتهم. هكذا وصفهم علماء الجرح والتعديل بأنهم ضعفاء وغير ثقة بالاطمئنان إلى مروياتهم. وهناك مستشرقون آخرون غير البروفسور بيترسن ممّن تأثر بمدرسة المستشرق الإيطالي المعروف كيتاني والمستشرق الدانماركي بهل Buhl والمستشرق الألماني نولدكه وغيرهم. ونقصد بمدرسة كيتاني في الكتابة التاريخية المعتمدة على منهج النقد والتحليل وتفكيك الرواية.

(1) Petersen, E.L. Ali and Mu'awiya in Early Arabic Tradition (Copenhagen 1964).

وقد ترجمه إلى العربية ناجي، د. عبد الجبار: علي ومعاوية في الرواية العربية المبكرة: دراسة في نشأة ونمو الكتابة التاريخية الإسلامية حتى نهاية القرن التاسع الميلادي الثالث الهجري، قم ٢٠٠٨م، ١٤٢٩هـ.

المبحث الثاني

واقعية العنوان (الإستشراق والتراث العربي الإسلامي).

تغطي مفردات الكتيب وفصوله الحدود الزمنية التي شغلتها الأحداث التاريخية والسياسية والحضارية لتاريخ العصور الوسطى الإسلامية ومنذ القرن الأول للهجرة / السابع للميلاد حتى القرن السابع الهجري / الثالث عشر للميلاد، بمعنى الزمان الذي حفّز فيه الدين الإسلامي المبدعون من الناس من مختلف المذاهب والأديان والأجناس على الردّ الحضاري الناشز والإيجابي على ما فرضته الحضارات الإنسانية السائدة آنذاك كالحضارة المسيحية الغربية (اليونانية والرومانية) والحضارة الشرقية، الفارسية والهندية والصينية. إنه ردٌّ بمحتوى التعايش لا التصارع مع تلك الحضارات وضمن جدلية الأخذ عن الغير والتأثر بالإنجازات الحضارية الرائعة التي أنجزها الإنسان سواء أكانت تلك الإنجازات ماديّة أم معنوية أم فكرية أم إنسانية.لذا علينا أن لا نفهم الصراع ـ كما فهمه البروفسور صموئيل هنتغتن ـ بين الحضارات فهما تهديمياً وتخريبياً مسلّحاً ودموياً. فالحضارات إنسانية لا تتنازع نزاعاً مسلّحاً إنما تؤثّر وتتأثر بالفكر والحوار والمعايشة.

وواقع الحال فالمستشرقون ـ أو لنقل العلماء الغربيين ـ من مؤرخين وفلاسفة تاريخ وعلماء قد شهدوا عبر دراساتهم الكثيرة والمتنوعة الحقول بواقعية وفاعلية الحضارة الإسلامية وتشعّب ميادينها في الإنجاز وفي تناسق مسيرتها لتحقيق ذلك. وأن عدداً منهم حين يقف على إنجازات العلماء المسلمين في ميادين كالفلسفة والمنطق أو كالسياسة المدنية أو العلوم المحض الأخرى كالطب يفضّل القول بأن العلماء المسلمين قد تأثروا كثيراً في هذه المجالات بالحضارة الغربية، ولاسيما اليونانية، وأحياناً تتطّرف أقوالهم هذه إلى حدّ أن الإنجازات الإسلامية هي في حقيقتها تقليد واقتباس عن إنجازات تلك الحضارات لا غير. بذلك ينفي هؤلاء أية أصالة أو ابتكار للإنجازات الإسلامية الحضارية. ومع هذا فبعض المستشرقين يعترف بأصالة الأفكار والنظريات التي حقّقها العلماء المسلمون وبما أضافوا إلى الإبتكارات اليونانية والرومانية من تجديد وتطوير وإضافات قيّمة لما توصل إليه علماء اليونان والرومان. فضلاً عن تلك العلوم المحض فقد بالغ عدد من المستشرقين القول بعدم أصالة أو

تجديد المسلمين في حقل بناء المدن أيضاً. فقد كان المسلمون مقلدين تماما لفلسفة بناء المدن الرومانية في تخطيط المدن وعمرانها وطوبوغرافيتها نعتقد بكونها مزية خاصة تميزت بها المدن الإسلامية من غيرها نظير المسجد الجامع والشارع الرئيس والحمام والسوق المركزي وما إلى ذلك من وحدات عمرانية.

قبالة هذه الأفكار والآراء هناك عدد من المستشرقين ممن أشاد بفاعلية الحضارة الإسلامية وأكّد أثرها وتأثيرها على الحضارة الأوربية حتى في الميادين التي قلّل المستشرقون المؤيدون بواحدية تأثير وأصالة الحضارتينْ اليونانية والرومانية. إذ بينوا إنجازات المسلمين العلمية في حقل الجغرافية والملاحة ورسم الخرائط مثلاً أو في حقل الرياضيات والفلك. فضلاً عن كونها ـ حسب رأي هذا النفر من العلماء الغربيين ـ تمثّل الخازن والحافظ للتراث اليوناني والروماني الأرسطي والإفلاطوني الذي نقل إلى بغداد ثم ترجم العلماء السريان والمسلمون هذا التراث وشرحوه في اللغات السريانية والعربية أو حتى اللاتينية، وعاد ثانية إلى أوربا باللغة العربية عبر المسالك المعروفة كالتجارة وعبر الأندلس وصقلية والرحلات العلمية وتأسيس المكتبات والمعاهد وتشجيع العلماء المسلمين للعمل في بلاطات الملوك وغير ذلك.

وبات من الملاحظ في الوسط الفكري والثقافي ذلك المجهود القيّم الذي بذله المستشرقون منذ القرن السادس عشر في تشخيص وقراءة المخطوطات الإسلامية المهمة المتوافّرة في مكتبات أوربا آنذاك وفي جردها في المكتبات العلمية في بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا. وهمّوا أنفسهم في تعلم اللغات الشرقية ولاسيما العربية لأجل تحقيق أمّهات المخطوطات في المجالات التاريخية والعلمية والفلسفية.بعدها أخضعوا ما حقّقوه ونشروه إلى الدراسة المعمقة والدقيقة وإلى مقارنة المعلومات ضمن المخطوطة الواحدة أو بين مخطوطة وأخرى فنتج عن هذه العملية المجّهدة نتائج مذهلة. وابتدأت المكتبات الأوربية تصنّف ما لديها من كتب ومخطوطات وترتّبها فظهر ذلك الخزين المهم جداً من آثار التراث الإسلامي. فالهدف البيّن للدراسة عن تطوّر الإستشراق يتمثّل بتوكيد اندفاع المستشرقين والعلماء الأجانب دون كلل في كتابة الدراسات والبحوث. وكذلك في تحقيق المخطوطات ودراستها وتفحّصها وفي العمل الدؤوب والمثمر في البحث والكشف عن الجديد من المخطوطات. ولعل أنسب وأفضل مثال على هذا الجهد والعمل الفذ والمجهد الذي اضطلع بانجازه وأعبائه المستشرق الألماني المشهور كارل بروكلمان Brockelmann

في الكتاب القيم جداً (تاريخ الأدب العربي Geschechte der Arabischen)[1] ثم أكمل هذا العمل المستشرق فؤاد سزكين إذ أبقى تراث بروكلمان حيّا في اختياره عنوانا مشابهاً لذلك في كتابه الضخم أيضاً (تاريخ الأدب العربي) باللغة الألمانية. فالكتابان فضلاً عن موسوعة الفهرست الإسلامي Index Islamicus الذي تحمّل أعباء تأليفه المستشرق البريطاني بيرسون Pearson تعدّ أعمالاً مجيدة ونيّرة خلّدت فيها منهجاً ببلوغرافياً ومكتبياً متطوّراً، متفعاً من التجربة العلمية الناضجة التي أسّسها عالم الفهرسة المسلم الرائد ابن النديم، وفي الفهرست الآخر المهم معجم الأدباء لياقوت الحموي وغيرها من أمثال معجم العلماء ومعجم الأطباء ومعجم النحّاة ومعجم الشعراء ومعجم الفقهاء ومعجم المحدّثين ومعجم القرّاء ومعجم المفكرين وغيرها. والجدير بالإشارة إلى أن أجزاء الفهرست الإسلامي للبروفسور بيرسون قد اشتملت على تبويب وفهرسة للبحوث المنشورة باللغات الأوربية والشرقية المعنيّة بتاريخ المسلمين وحضارتهم.

فضلا عن ذلك فأعمال المستشرقين ودراساتهم لم تتحدّد في مجال البحث والتفتيش عن المخطوطات وصنع فهارس لها وأماكن وجودها ومن ثم إخضاعها للدرس والتحقيق إنما توسّعت اهتماماتهم لتشمل إجراء دراسات وبحوث حول الكثير من الموضوعات في تراث أمتنا سواء أكانت موضوعات كبيرة وواسعة نظير تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان وتركستان قبيل الغزو المغولي لبارتولد ودراسة المستشرق الألماني شبولر عن إيران في العصور الإسلامية وتاريخ المغول لهيوارث بثلاثة أجزاء أم الموضوعات الدقيقة والمحدودة زماناً ومكاناً وميداناً وهي كثيرة جداً.والملاحظ أن بدايات هذه الدراسات الميدانية قد توزّع على المدارس الإستشراقية توزيعاً تختلط فيه العوامل في هذا التوجّه والاهتمام أو ذاك التوجّه والاهتمام. بعضها كان يقع تحت تأثيرات قومية ـ جغرافية ـ أثنية كالحال في الدراسات الروسية القيصرية والسوفيتية، والبعض الآخر ناتج عن تأثيرات سياسية ترتبط بفكرة استعمار أو سيطرة دولة أجنبية على بلاد أو منطقة واسعة كالحال في الدراسات البريطانية التي ركّزت تقريباً على العراق وإيران وتركيا، والدراسات

---

(1) Brockelmann, Carl: Geschichte der Arabischen Litteratur (2 Volumes, Weimar 1898-1902)

وقد ترجم إلى اللغة العربية بعنوان تاريخ الأدب العربي بأجزاء.

الفرنسية التي توجّهت دراساتها نحو شمال أفريقيا، والبعض الثالث كان متأثرا بمسائل وفلسفات فكرية ومعرفية كالدراسات الألمانية، وبعضها وقع تحت تأثير معرفي لتحقيق أهداف سياسية كدراسات الفرق الإسلامية والفلسفة الإسلامية، والدراسات الكثيرة الدانمركية والسويدية والهولندية والأمريكية والإسرائيلية حول التشيع عامة والتشيع الإمامي خاصة وحول النزاعات والصراعات التي شهدها التاريخ الإسلامي وحول الحركات المعارضة ضدّ السلطات القائمة والحركات والثورات التي تسود حركاتها عوامل اجتماعية أو اقتصادية أو حول جوانب كثيرة من إنجازات الحضارة الإسلامية. بمعنى الجوانب التي شغلت أفكار المستشرقين وتلك التي جذبت اهتماماتهم التي كان ما يماثلها في التاريخ الأوربي. وشيئاً فشيئاً أضحت دراساتهم وبحوثهم هي المعوّل عليها في اختصاصات كثيرة من التراث الإسلامي. فمثلاً حينما يذكر اسم مستشرق كالمستشرق الإيطالي كيتاني Caetani فإن التوجّه يكون مباشراً للإشارة إلى كتابه الكبير الحوليات (أي حوليات الإسلام (Annali dell Islam[١]))، وقد أبدع هذا المستشرق في دراسته وترجمته للنصوص الكاملة من التراث الإسلامي ضمن مجلدات الكتاب. كذلك عندما يذكر اسم مستشرق كالمستشرق الألماني جوليوس فلهاوزن Wellhausen, J فذلك مؤشر مباشر إلى دراسته القيّمة (المعارضة الدينية والسياسية في الإسلام) وكتابه الآخر(The Arab Kingdom)[٢] (الدولة العربية وأفولها). وعندما يشار إلى مستشرق كالمستشرق الألماني شاخت Schacht فالمقصود مؤلفاته الهامّة حول الفقه الإسلامي. أيضاً فالإشارة إلى المستشرق المجري جولدتسيهر Goldziher إنما هي إشارة مباشرة إلى كتابه (العقيدة والشريعة) ودراسات محمدية

---

(1) Caetani, L.: Annali dell Islam, Milano 1905-26.

(2) Wellhausen, J. Die religioes - politischens partien im alten Islam (Berlin 1901)

وقد ترجم إلى العربية بعنوان (المعارضة الدينية والسياسية في الإسلام) والكتاب الثاني

The Arab Kingdom and its fall

وبالألمانية:

Das Arabische reich

وترجمه الدكتور يوسف العش اعتماداً على الترجمة الإنجليزية (الدولة العربية وأفولها) كلكتا ١٩٢٧، أما الطبعة الألمانية فقد طبعت في برلين عام ١٩٠٢.

Muhammedanische Student والى بحثه القيّم (مذهب التقية في الإسلام)[1] وغيرها. وهكذا هو الحال بالنسبة إلى مطالب ومباحث ودراسات أخرى. والملاحظ ذكره أن الإشارة إلى تلك المؤلفات الإستشراقية لا يقصد منها مواقفها الإيجابية مائة بالمائة من محتوياتها وتفسيراتها ورؤاها إزاء القضايا الساخنة من تاريخنا، بقدر ما تهدف الإشارة إليها بوصفها مؤلفات أثبتت قيمتها ووزنها العلمي إبان زمان لم يكتب عنها باللغة العربية شيئاً يظاهيها في الموضوع والفلسفة والمنهج وحتى في المسح المصدري. فترجمة جورج سيل Sale[2] البريطاني للقرآن الكريم في سنة ١٧٣٤ صارت آنذاك ولمدّة طويلة من الزمن المرجع لدى الكثير من المستشرقين، وبالفعل فقد ترجمت إلى اللغة العربية لتعتمدها البعثات التبشيرية البروتستانتية في مصر.

التراث الإسلامي في نظر المستشرقين:

المرجّح بشأن الاهتمام المتزايد والمتشعّب الجوانب من قبل المستشرقين الأوربيين والأمريكان والروس والسوفيت واليهود في دراسة تراث الإسلامي وحضارته والتوجّه نحو تحقيق المخطوطات التاريخية والفلسفية والأدبية والعلمية في شتى العلوم المحض، وفي بذل الجهود المضنية باتجاه تأليف الكتب والموسوعات الكبيرة في حجمها ومعلوماتها نظير دائرة المعارف الإسلامية Encyclopedia of Islam في طبعتيها القديمة والجديدة وتاريخ كمبردج Cambridge History of Islam للإسلام، وتاريخ كمبردج للأدب العربي Cambridge History of Arab Literature وتاريخ كمبردج لإيران Cambridge History of Iran وموسوعة تاريخ العلوم لسارتون، وفي عقد المؤتمرات المتسلسلة عن الإستشراق، أو عن الإسلام والحضارة الإسلامية أو عن الاقتصاد الإسلامي أو عن المدن الإسلامية أو عن مدن الشرق أوسطية أو عن

---

(1) Goldziher, I: Muhammdeanische Studien, 2 Volumes Halle, 1888-1900 دراسات محمدية (إسلامية).

وبحثه القيم الآخر:

Das Prinzip der Takiya im Islam

المنشور في مجلة ZDMG الجزء ٦٠ IX سنة ١٩٠٦.

(2) Sale, G. The Koran, with a "Preliminary Discourse" London 1734; Pearson, J.D. " Bibliography of translation of the Koran into European Languages" in Cambridge history of Arabic litetature, idem (Kuran) in Encyclopedia of Islam (New Edition).

الحروب الصليبية، كل ذلك يعضد القول بأن ذلك هو إثر علمي يدلّ دلالة واضحة على مدى فاعلية وحيوية التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية في العصور الوسطى بما اصطلح عليه المستشرق الألماني آدم متز Metz بعنوان (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري). وفعلاً فإن هذا القرن هو القرن الذهبي للحضارة الإسلامية في غزارة وأصالة إنتاج العلمية المتنوعة، كذلك فإن هذه الفاعلية هي التي حدت بالمستشرقة زنغريد هونكه إلى إطلاق (شمس العرب تسطع على أوربا) عنواناً لكتابها هذا.

ومما لا شك فيه أن هذه الاهتمامات الغربية بالتراث مدفوعة أيضاً بدوافع متعددة غير التي وقفنا عليها آنفا، ولعل بعضها يعدّ دافعاً شجع المستشرقين من هذه البلاد أو تلك إلى بذل الجهود الواضحة في الإقدام على تعلم اللغات الشرقية والى دراسة تاريخ الشرق. ومن بين هذه الدوافع الدافع السياسي والإقتصادي بما يتماشى وتطوّر العلائق مع العرب والمسلمين أي بين الغرب والشرق. فضلاً عن دوافع حبّ الاستطلاع وتوسّع الحاجة إلى التعرف على منطقة تختلف عن أوربا حضارة وتقليداً والأهم ديناً؛ والتعرف على شعوب وأناس يعيشون بقعة من الأرض، ويختلفون عن الشعوب الأوربية في الجوانب التربوية والاجتماعية، وفي تقاليدهم وشعائرهم وعاداتهم وأفكارهم. إلا أن المهم في هذا هو ارتباط جميع هذه الاهتمامات ارتباطاً مباشراً بمستوى ونوع العلاقات بين الإسلام أو الشرق والغرب إن كانت إيجابية أو خلاف ذلك.

وفي الوقت الذي سعى فيه الغرب ـ منذ أقدم الأزمنة ـ إلى التقرّب من الشرق والتعرف على خصائصه وموارده وإلى التعرف على الإسلام ديناً وأسلوب حكم إن وجد؛ سعياً حثيثاً إما بدفع وتشجيع من دولهم أو بدفع وتشجيع من المؤسسات العلمية والثقافية والتبشيرية بهدف تحقيق تلك المهمات الصعبة، أو لكونه نتيجة ملازمة للتطوّر الذي شهده التدوين التاريخي والإيستمولوجيا الثقافية أو لكونه نتيجة ملازمة لتوسع الأفق العلمي والثقافي والبحثي للباحثين والعلماء في العالم. فبدلاً من ركون الباحث الأوربي والأمريكي ضمن. فلك مكاني هو فلكه الخاص به وبذلك يحكم على معرفته بضيق نطاقها وأفقها ضمن حدود بلاده ورقعته الجغرافية. فنشطت لذلك النظرية الغربية الحضارية الإستعلائية بأن الحضارة الغربية هي أمّ الحضارات وأسّها. أو الإنطلاق باتجاه دراسة تراث وحضارة الغير أيّاً كان كالإسلام مثلاً؛ ولاسيما أن هناك حاجة

ماسّة إلى مثل هذه المعرفة على مختلف الأصعدة. ويعدّ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية حقلين مهمين بحدٍّ نفسهما.فقد بدأ الإسلام متحفّزاً منذ انطلاق الدعوة الإسلامية ومنذ حصول المسلمين المقاتلين على نجاحات وانتصارات في دفع المسيحيين البيزنطيين عن منطقة الشرق وعن بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا. وعندئذ نهض الإسلام قوة منافسة ومتحدّية للغرب وللديانة المسيحية الغربية. وظل ينهد بهذه المهمة الهجومية ضد الغرب المسيحي منذئذ وحتى الوقت الراهن. لذلك بات من اللازم التعرف على الإسلام وعلى الخصائص الجيدة وعلى محاسنه وإيجابياته وكذلك على مواطن الضعف من جانب آخر وعلى ما يراها الغربيون مساوىء يمكن استثمارها في مجال الدراسة والبحث بهدف الوصول إلى استنتاجات وآراء يمكن أن تستخدم عناصر في التشويه والطعن في مبادئه؛ فضلا عن استثمارها في بناء تراكم من التخرصات والإفتراءات ضدّ الإسلام ورموزه ورسوله الأكرم. فهذه جميعها قد وجد مفعولها في الساحة الفكرية والسياسية الأوربية؛ولذلك اندفع هذا المستشرق مثلاً للبحث عن مواطن الضعف ليثير شكوكاً حول الإسلام في حين انتفع مستشرق آخر لإظهار فاعلية هذه العناصر في التراث الإسلامي ..... وهكذا اختلف المستشرقون في تفسيراتهم وتباينت رؤاهم بشأن عدد من الأمور الخاصة بالتاريخ الإسلامي. وهي تقاطعات ربما انطلقت من تباين منابع معارفهم الشخصية ومن زاوية من زوايا التراث الإسلامي.

والتاريخ الإسلامي ـ كما هو الحال في تواريخ وأديان الشعوب الأخرى ـ على الرغم من ماضوية أحداثه وعلى الرغم من ماضوية الإنجازات الحضارية فيه حثّ على ظهور اتجاهات فكرية عند العرب والمسلمين.فالحداثيون يرون أن العناية بتراث أمة، أي امة،هو أمر قد عومل بكثير أو قليل من المبالغة فيه، وذلك لا يصدر إلا من عقليات متخلّفة قديمة. ولكن على الرغم من توافّر مثل هذه النظرة والرؤية التشاؤمية بشأن التراث، فإن هناك رأيا يصرّ على ضرورة الإنتفاع من التاريخ وحضارته بوصف ذلك يشكّل عنصراً فاعلاً في تمسّك الشعب أي شعب بماضيه الحضاري المزدهر.لأن هذا يعدّ ـ في المباني الحضارية للأمة في حاضرها ومستقبلها ـ امتداداً طبيعياً يصعب فصله أو عزله أو نسيانه أو تغييبه عن عقلية الإنسان وعن وجوده وبقائه حيّاً ونافعاً.

ونلحظ أن العلماء الغربيين (وبضمنهم المستشرقين) في أوربا الوسطى وروسيا القيصرية قد بادروا إلى دراسة تاريخ المسلمين وإلى تحقيق المخطوطات الإسلامية

التاريخية والجغرافية والعلمية منذ عهد مبكّر يرجع إلى القرن السادس عشر، من دون تضمين مؤلفات كتّاب الكنيسة وكتّاب العصور الأوربية الوسطى. إذ يرجع تاريخ اهتمامات هؤلاء إلى أبعد من ذلك التاريخ وإلى القرنين الثاني عشر والثالث للميلاد.

كانت الخطوة الأولى نحو تثبيت هذا التوجّه وتحقيق هذه الرغبة في تاريخ الشرق هو الاهتمام بتعلم اللغة العربية قواعداً ـ القواعد البسيطة ـ ولغة، وانطلق هذا في فرنسا وهولندا أولاً ثم توسّع في بريطانيا وألمانيا. ولأجل توسيع المعرفة اللغوية فقد قام المهتمّون بتحقيق المخطوطات المتعلقة باللغة والأدب والشعر الجاهلي والدواوين الشعرية. وكان المبشرون ـ كما سنعرضه لاحقاً ـ هم المؤسّسون البارزون لهذه العملية العلمية الأساس وهم ـ مما لا شك فيه ـ مدفوعون بدوافع وبواعث متعددة أهمها الدافع الذي يغذي التبشير بغية تزويد المبشرين والدعاة بالوسائل والأسلحة العلمية الماضية والقوية لكسب الجولة في البعثات التبشرية وفي العمل التبشيري ويهدف أولا وقبل كلّ شيء إلى تحويل المسلمين إلى الدين المسيحي.وعلى الرغم من عدم تحقيق هذه الخطوة أو الإجراء بغيته وأمانيّه، وبسبب عدم إنجازها هذه المهمة بنجاح، وأنها واجهت عثرات وصعوبات أكثر مما حقّقته من نجاحات كان المبشرون دائما يعتقدون بأنها ستكون نجاحات باهرة. لكن الدافع التبشيري هذا قد انطوى على نتائج أخرى إيجابية من الجانب العربي والإسلامي إذ انشّد الغربيون انشداداً فكرياً قوياً إلى التراث الإسلامي والى اللغة العربية وإلى الإندفاع أكثر فأكثر نحو التعرف على ما قدّمه المسلمون من إنجازات لغوية وأدبية. إذن كان الدافع التبشيري دافعاً مزدوجاً في هدفه ومحصلته النهائية؛ ومن بين النتائج تأسيس كراسي اللغة العربية في فرنسا (في الكوليج دي فرانس College de France)[١] وفي هولندا إذ تأسس أول كرسي لتدريس هذه اللغة، وتأسست أول مطبعة وهي مطبعة بريل في ليدن لطبع التحقيقات التي أنجزها المستشرقون وبحروف غربية جميلة، بعد ذلك تأسّس كرسي اللغة العربية في كمبردج وأكسفورد في بريطانيا. كذلك تأسّس أول معهد لتدريس اللغات الشرقية، وهو المشروع الرائع الذي حقّق نتائج إيجابية جليّة بخصوص التراث الإسلامي في باريس وتحمّل أعباء تأسيسه وتطويره المستشرق الفرنسي الذائع الصيت سلفستر دي ساسي Silvister de Sacy، بحيث أصبح مركزاً

---

(١) ينظر رودنسون، مكسيم: الصورة الغربية والدراسات العربية الإسلامية (في تراث الإسلام، تحقيق د. شاكر مصطفى، الكويت ١٩٧٨ ص ٢٧-١٠٠ (ص٦١).

لتعليم اللغة العربية وآدابها وتعليم إنجازات الحضارة الإسلامية للمستشرقين الفرنسيين أو الأوربيين بصورة عامة. وإن أغلب الأسماء اللامعة من المستشرقين من الجيل الأول من ألمان وبريطانيين قد تخرّجوا في هذا المعهد وهم مزودون بالإرث اللغوي العربي وبالأدب العربي.

وبوساطة جميع هذه المستلزمات العلمية والمساعي الحثيثة في تعلم اللغة العربية وفي تحقيق المخطوطات التي أفلح المستشرقون الأوائل في الحصول عليها نظير:- تاريخ أبي الفداء (المختصر في تاريخ البشر) وتاريخ ابن العميد وتاريخ ابن العبري وغيرها؛ تمكّن المستشرقون من الكتابة عن السيرة النبوية كالذي قام به المستشرق البريطاني همفري بريدو .Prideau وبمرور الزمن فقد انطلق المستشرقون في تحقيق ودراسة أمّهات كتب السيرة النبوية كسيرة ابن هشام وطبقات محمد بن سعد تلميذ الواقدي وتاريخ الرسل والملوك وغيرها. ولهذا فقد غزت الطبعات الأوربية لذخائر التراث الإسلامي أسواق الكتب العربية الإسلامية، بينما لم تظهر آثار ذلك على المؤلفين والعلماء العرب والمسلمين في بلداننا.كان هذا المشروع العلمي الحيوي الواسع في أهدافه وأدواته ـ أي المصادر الإسلامية ـ يكاد يكون حكراً على المستشرقين دون أن يتعامل العلماء المشارقة ـ علماء الشرق ـ تعاملا واقعيا مؤثرا. حقيقة فقد ظهر في مطلع القرن العشرين تقريباً مبادرات للتعريف بالمستشرقين وكذلك لعرض أفكار عن المشروع الإستشراقي الكبير الذي حقّق حتى مطلع القرن العشرين حوالي ثلاثين مؤتمراً عالمياً للمستشرقين في عدة عواصم أوربية. وكانت بداية ردّ الفعل العربي الإسلامي مباشرة وبسيطة بصيغة مدح وإطراء لإنجازات هؤلاء المستشرقين. كالذي حدث في الساحة الفكرية المصرية، كما سنتحدّث عنه آنفا. كذلك ظهرت حالات من التعريف بالمستشرقين والتميز بينهم وبين المبشّرين في العراق في مطلع ذلك القرن أيضاً عن طريق نخبة من رجال الإصلاح من علماء الدين في النجف الأشرف أو من قبل المثقفين في بغداد، لكن هذه الردود والمواقف كانت محدودة هدفها الأساس التعريف بهم والتميز بين أعمالهم وأهدافهم وبين أعمال البعثات التبشيرية وأهدافها مع الإشارة إلى نماذج من مؤلفات الجانبين ومساعيهم العلمية.

إلّا أن عجلة الثقافة والعلم لم تبقَ أسيرة تلك الخطوة المحدودة بل تسارعت خطاها بعد عقد أو عقدين من الزمان. وكان لهذا التسارع ـ مع أنه كان بطيئا موازنة مع

سرعة الإنجازات التي حقّقها المستشرقون ـ نتائج حقيقية بظهور دراسات متعدّدة عن الحركة الإستشراقية وعن المؤلفات التي نشرها المستشرقون والمخطوطات التي حقّقوها في بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا.المهم أن هذه الدراسات قد بيّنت مواقف إزاء من كان من المستشرقين يرتبط في العملية السياسية الإستعمارية أو من يقع نشاطه ضمن عمليات التبشير أو من كان عاملاً ضمن البعثات التنقيبية أو غير ذلك. والملاحظ أنها بصورة عامة كانت عمليات فاعلة واتسّع نطاق عملها وتأثيرها. ولهذا فإنه من الصحيح القول بأن ميدان الإستشراق والمستشرقين وعلاقاتهم بالإسلام والحضارة الإسلامية والتراث الإسلامي قد أثار بالفعل حفيظة الباحثين الغيورين من العلماء العرب والمسلمين ولكن في المجال المهم المتعلق بدوافع هؤلاء المستشرقين ـ وليس المبشرين منهم ـ ولاسيما السياسية منها. فكانتْ الخطوة الأولى في التعريف بالمستشرقين والتعريف بمشروعهم، وبالتعريض إلى ما كانوا يهدفون إليه من وراء دراساتهم الطاعنة بالإسلام على سيرة نبينا أو تلك التي تقلل من آثار وإنجازات الحضارة الإسلامية. وفي هذا المجال لابدّ من الإشارة إلى نماذج من عنوانات وفلسفة بعض هذه الأعمال العربية منذ الخمسينيات فصاعداً نظير كتاب الأستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمن الذي لا يتضمن عنوانه أية إشارة إلى المستشرقين لكن محتواه وفلسفته تدور حول ذلك الموضوع. إنه كتاب (تراثنا بين ماض وحاضر)[1] إذ شدّدت الدكتورة على الأثر السيء للدراسات الإستشراقية لأن دافعها وتوجّهها كان منطلقا من العامل أو الدافع السياسي.وفي الاتجاه والتفسير نفسه ألّف الأستاذ مالك بن نبي كتاباً حول (إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث)[2]. وقد شدّد المؤلف في الكتاب على جوانب تتفق مع ما عرض في كتاب الدكتورة عائشة ألا وهو الجانب السياسي من وراء نشاطات المستشرقين. كذلك شدّد على ما ساد تلك النشاطات من عمليات تشويه وتحريف ودسٍّ ضد الإسلام والقرآن الكريم أو ما كان سائداً فيها من تحريف وتشويه للنصوص التاريخية الإسلامية. وللمرحوم الدكتور عرفان عبد الحميد مساهمة في هذا المجال في كتاب عنوانه (المستشرقون والإسلام)[3] المطبوع عام

---

(١) عبد الرحمن، د. عائشة: تراثنا بين ماض وحاضر، درا المعارف في مصر ص ٥٢.

(٢) مالك بن نبي إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث (دار الإرشاد، بيروت).

(٣) عبد الحميد، د. عرفان: المستشرقون والإسلام: بغداد ١٩٦٩.

١٩٦٩. والدكتور يتناول أيضاً زاوية في البناء المعرفي المذكور في الدراستين الآنفتين فيما يتعلق بدسّ عدد من المستشرقين على الإسلام وبتعصب البعض الآخر منهم ضدّ الإسلام والنبي، مستشهداً بأسماء بعضهم ومشيراً إلى تلك التفسيرات التي تنطوي على تحامل وحقد وتعصب. وهناك أيضاً دراسة الأستاذ محمد الغزالي الموسوم بـة بـ (دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين)[١]. وبناء هذا الكتاب وفلسفته واضحة من عنوانه، وإنه يقع ضمن دائرة هذه الدراسات المتوجّهة نحو الكشف عن مطاعن المستشرقين عموماً دون تمييز بين بلدانهم أو فيما إذا كانوا مبشرين أو غير ذلك. وفي هذا المجال يستحسن الإشارة إلى دراسة الأستاذ مصطفى السباعي الموسوم بـ (الإستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم)[٢] ونشره عام ١٩٧٩.

فضلا عن ذلك فقد نشرت في حقبة الثمانينيات دراسات أخرى تدور حول توجيه الانتقادات إلى الدراسات الإستشراقية غير الإيجابية منها :- دراسة الأستاذ أنور الجندي الموسوم بـ (سموم الإستشراق)[٣] ودراسة الأستاذ عبد الحميد متوّلي بعنوان (الإسلام وموقف علماء المستشرقين: إتهامهم الشريعة بالجمود وعلمائها الأقدمين بالتأثر بالقانون الروماني)[٤]، فالعنوان قائم على إظهار خطأ التفسيرات الإستشراقية في مجالات مهمة من إنجاز العلماء المسلمين. ودراسة الأستاذ عجيل النمش المعنونة (المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامية)[٥]، ودراسة الأستاذ قاسم السامرائي الموسوم بـة بـ (الإستشراق بين الموضوعية والافتعالية)[٦]، فضلاً عن دراسة الدكتور

---

(١) الغزالي، د. محمد: دفع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين (طبعة رابعة، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٧٥).

(٢) السباعي، مصطفى: الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم (طبعة ثانية بيروت ـ دمشق، المكتب الإسلامي ١٩٧٩.

(٣) الجندي، أنور: سموم الاستشراق، دار الجيل، القاهرة ١٩٨٥.

(٤) متولي، د. عبد الحميد: الإسلام وموقف علماء المستشرقين: أتهامهم الشريعة بالجمود وعلمائها الأقدمين بالتأثر بالقانون الروماني (الطبعة الأولى) جدة ١٩٨٣.

(٥) النمش، د. عجيل المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي (الكويت ١٩٨٤).

(٦) السامرائي، د. قاسم: الاستشراق بين الموضوعية والأفتعالية (طبعة أولى، الرياضي، منشورات دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع (١٩٨٣).

محمد حسين الصغير الموسوم بـه بـ (المستشرقون والدراسات القرآنية)[١] المنشور عام ١٩٨٦.

وظهرت في هذه الحقبة دراسات معنية بإبراز ردّ الفعل العربي الإسلامي على أعمال المستشرقين وكتاباتهم بصيغة تعريف بأعلام المستشرقين وأهم إنجازاتهم بحسب بلدانهم التي ينتمون إليها.ولعلها توصف بالدراسات الوصفية العامة التي تتمحور فلسفة كتابتها على توصيفات تتعلق أساساً بالدوافع، فضلا عن أنها لا تهدف إلى تحديد الزوايا الفكرية والسياسية والتبشيرية للمستشرقين نظير بحث الأستاذ المرحوم يعقوب أفرام منصور حول (تطور الإستشراق الإنجليزي)[٢]، ودراسة الدكتور صلاح الدين المنجّد الموسوم بـه بـ (المستشرقون الألمان)[٣]. ومن أبرز الدراسات الوصفية الكتاب الموسوعي الذي صنّفه المرحوم الأستاذ نجيب العقيقي. فالموسوعة تعدّ أنموذجاً رائداً وشاملاً لما أطلقنا عليه بالدراسات التعريفية والوصفية، فقد ضمّن المؤلف كتابه الموسوم بـ (المستشرقون)[٤] بثلاثة أجزاء سرداً مفصلاً عن كل مستشرق على وفق البلاد التي ينتمي إليها، ومعرّجاً على إنجازاته بشكل دقيق ومفصل. وحقّاً فإن الكتاب مهم جداً لجميع الباحثين والدارسين العرب والمسلمين الذي يعنون بدراسة مستشرق واحد أو مجموعة من المستشرقين حسب جنسياتهم. وقد استشهد بهذا المجهود المستشرق البريطاني دنلوب D.M.DUNLOP في بحثه (ملاحظات على تاريخ المستشرق الألماني فايل Weil حول الخلفاء)[٥]. ويذكر أيضاً ضمن هذا المحور من الدراسات العربية دراسة الدكتور محمد زايد (المستشرقون

---

(١) الصغير، د. محمد حسين: المستشرقون والدراسات القرآنية (طبعة ٢، بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٨٦.

(٢) يعقوب أفرام منصور: تطور الاستشراق الإنجليزي، مجلة المعرفة ص ٩٢-١٠٦.

(٣) المنجد، د. صلاح الدين: المستشرقون الألمان، طبعة ثانية، بيروت، دار الكتاب الجديد ١٩٨٢.

(٤) العقيقي، الأستاذ نجيب، المستشرقون، موسوعة في تراث العرب مع تراجم: المستشرقون ودراساتهم عنه منذ ألف عام حتى اليوم (طبعة رابعة القاهرة، دار المعارف، ٣ أجزاء / ١٩٨٠).

(5) Dunlop, D.M. "Some remarks on Weil's history of the Caliphs" in Historians of the Middle East (ed. By Bernard Lewis and P.M. Holt, London 1964, pp. 315-29.

البريطانيون وتاريخ العرب)[١] ودراسة الدكتور عبد الحميد صالح حمدان الموسوم بـه بـ (طبقات المستشرقين)[٢]، كذلك دراسة الدكتور عبد الرحمن بدوي الموسوعية بعنوان (موسوعة المستشرقين)[٣] التي طبعت عدة مرات بالنظر إلى أهميتها. وترجم الدكتور إبراهيم السامرائي كتاباً أطلق عليه (من دراسات المستشرقين لمجموعة من المستشرقين)[٤] ويحتوي على دراسات المستشرق المعروف ماسنيون، وبعض الدراسات الإستشراقية عن اليمن.

وتعدّدت الدراسات العربية بخصوص الإستشراق منذ السبعينيات، وهي في الغالب تتمثل بمحورين أساسين الأول منهما دراسات المستشرقين عن السيرة النبوية والقرآن الكريم وتسلّط الضوء على تخرّصات المستشرقين ودسّهم وتحريفهم للنصوص التاريخية كذلك تميل إلى الطعن بشخصية سيد الأنام وتشويه سيرته.أما المحور الثاني فيشير إلى الدراسات المعنية بتوصيف الإستشراق كحركة.وعلى كونه وسيلة من وسائل التبشير وهدفه دعوة المسلمين إلى التدين بالمسيحية. فضلاً عن هدف المبشرين في تحريف النصوص القرآنية والتاريخية.ولعله من المستحسن توزيع مثل هذه الدراسات المنتقدة لرؤى المستشرقين وتفسيراتهم السلبية إلى الآتي: -

١- عقد الندوات والمؤتمرات بعنوانات مباشرة كالإستشراق والسيرة النبوية أو الإستشراق والدراسات القرآنية وتمّ عقدها في السعودية والأردن والعراق.

٢- تأليف الكتب والدراسات التي تحمل عنوانات متنوعة تصبّ في نفس الهدف وهو الذي يخدم الدافع السياسي + التبشيري أمثال:- الإستشراق والتبشير، والإستشراق علم موضوعي أم سياسة مقنعة، والإستشراق وموقفه من الإسلام، والإستشراق أهدافه وآثاره، والرسول في كتابات المستشرقين، والإستشراق والسيرة

---

(١) زايد، د. محمود: المستشرقون البريطانيون وتاريخ العرب.

(٢) بدوي، د.، عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين.

(٣) عبد الحميد صالح حمدان: طبقات المستشرقين

(٤) السامرائي، د. إبراهيم: من دراسات المستشرقين (لمجموعة من الباحثين. ترجمة وتعليق إبراهيم السامرائي، عمان، دار الفكر والتوزيع ١٩٨٥، حمدان، د. نذير الرسول في كتابات المستشرقين (طبعة ثانية، دار المنار، جدة ١٩٨٦).

النبوية، ونظرات المستشرقين في الإسلام(*)، وأضواء على الإستشراق، ومع المفسرين(**) والمستشرقين والإستشراق بين الموضوعية والافتعالية.

٣- تأليف البحوث والدراسات التخصصية بشأن مدرسة استشراقية واحدة، أو دراسة مقارنة بين مدرستين استشراقيتين. وهنا علينا الإشارة إلى أن الإستشراق صار موضوعاً للدراسات العليا الأكاديمية وحصل مؤلفوها على درجات عليا الماجستير والدكتوراه كالإستشراق الأمريكي والإستشراق البريطاني والإستشراق الألماني والإستشراق الإسرائيلي والإستشراق الفرنسي . . . الخ.

كما درس بعض الباحثين العرب إسهامات المستشرقين في ميدان من ميادين التراث الإسلامي ومثال على هذا دراسة بعنوان موقف الإستشراق الأمريكي من دراسة المدن الإسلامية، ومن جذور الإستشراق الأمريكي، والتغلغل الأمريكي في العراق، والتلقي الأمريكي للأدب العربي.

وفي هذا المحور هناك دراسات تتعلق بجوانب أخرى مثل دراسة (المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ومدى مقاربتهم من حقيقة الإسلام)[1]، والمستشرقون والإسلام، والإستشراق والمستشرقون[2].

٤- ثمّ تصاعدت حركة التأليف في الثمانينات لتتجه نحو دراسة موضوعات فكرية ومنهجية نظير: المستشرقون ومشكلات الحضارة، والإسلام والحضارة العربية ومناهج المستشرقين من الدراسات العربية الإسلامية، وأوجه التناقض في آراء المستشرقين القدامى والمعاصرين بشأن الإسلام والسيرة النبوية، والإسلام والغرب، ومداخل المثقفين العرب للاستشراق: التآلف والاختلاف[3].

(*) غلاب، د. محمد: نظرات استشراقية في الإسلام (القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر.

(**) الألمعي، زاهر عوض: مع المفسرين والمستشرقين (بيروت ١٩٨٢)

(١) ينظر العظم، د. صادق جلال: الاستشراق والمستشرقون (طبعة أولى، بيروت، ١٩٨١، زكريا هاشم زكريا: المستشرقون والإسلام (القاهرة ١٩٦٥، لطفي، عمر: المستشرقون والقرآن، القاهرة ١٩٩١).

(٢) العظم، د. صادق جلال: الاستشراق والمستشرقون (طبعة أولى، بيروت ١٩٨١).

(٣) الموسوي، د. محمد جاسم: مداخل المثقفين العرب للاستشراق (مجلة الاستشراق وزارة الثقافة والإعلام، مجلده ١٩٩١).

٥- كذلك تخصصت دراسات أخرى حول دور التبشير والمبشرين في دراسة التراث الإسلامي أمثال التبشير في منطقة الخليج العربي[١]، وحوار مع موضوع الإستشراق وعلاقته بالتبشير[٢]، والدراسات العربية في أوربا[٣]، والإستشراق والدراسات الإسلامية، والإستشراق والتبشير.

الدراسات الأجنبية حول الإستشراق:

الاهتمام العربي والإسلامي المتزايد في موضوع الإستشراق ولا سيما في السبعينيات فصاعداً جاء في الوقت الذي اتفق فيه المسبتشرقون المجتمعون في آخر مؤتمر لهم للاستشراق المنعقد في فلورنسا عام ١٩٧٣[٤] على أفضلية التوقّف عن استخدام مصطلح الإستشراق بسبب اعتراض عدد من العلماء الشرقيين (المشارقة) لأنهم كانوا يعتقدون بأنه مصطلح مسيئ لهم ولمنطقتهم الشرق أكثر من كونه إيجابياً ومادحاً وهم على حقّ إذا ما فهمنا من الإستشراق ذلك الفهم السلبيّ.حينها اتفق المجتمعون في مؤتمر الإستشراق والمستشرقين الأخير ـ ما خلا الوفود الإشتراكية أي وفد الإتحاد السوفيتي والدول التابعة له ـ على استبدال التعبير بمصطلح آخر هو :- (العلوم الإنسانية في آسيا وأفريقيا الشرقية). وقرار تبديل التعبير لا شك في أنه يتعلق بشكل أو بآخر بما تمخّضت عنه هذه الحقبة من السبعينيات من متغيرات كبيرة على الأصعدة السياسية والإقتصادية. والإشارة هنا إلى العلاقات بين بلدان الشرق الأوسط عموماً وأوربا وبينها وبين أمريكا وإسرائيل. وهذه حال أدّت إلى حدوث موجة من المتغيرات أيضاً على الصعيد السياسي المتعلق بأنظمة الحكم المحلية. أما في الجانب الإقتصادي فذلك مما هو مشهود به من توسّع في العلاقات والأطماع ومصالح الغرب بسبب الثورة النفطية الجامحة وآثارها الإيجابية الكبيرة التي أسهمت في إحداث تحولات اقتصادية واجتماعية وحضرية هائلة شهدتها بلدان المنطقة الخليجية أولاً وعموم بلدان الشرق النفطية وغير النفطية. فالثروة النفطية التي غيّرت من موازنات

---

(١) التميمي، عبد المالك، التبشير في منطقة الخليج العربي.

(٢) ناجي، د. عبد الجبار: حوار مع موضوع الاستشراق وعلاقته بالتبشير (مجلة دراسات إسلامية، بيت الحكمة العدد ٧/ ٢٠٠١).

(٣) جحا، ميشال: الدراسات العربية في أوربا، بيروت، معهد الإنماء العربي، طرابلس، ١٩٨٣.

(4) Oxford Dictionary, Oxford the Clareindon Pess.

المنطقة المالية والتجارية تعدّ بحق بمثابة الثورة في إحداث تغيرات جذرية في الأحوال الإقتصادية والإجتماعية والفكرية دفعت بالغرب وأمريكا والعالم إلى عرض واستعراض مشاريع بديلة للتغلغل في بلدان المنطقة والهيّمنة على شريان التطوّر هذا. فلم يعد التبشير المباشر هو الوسيلة الوحيدة لضعضعة إيمان شعوب المنطقة بالإسلام ومن ثم خلق خارطة متطرّفة خطيرة على مصالحهم، فقد صارت المنطقة منطقة جذب قوية للأطماع الأجنبية. ولهذا ابتليت مرة أخرى بتصارع هذه المصالح الأجنبية، تماما كما وقع في القرن السادس عشر فصاعداً، ولكن بدلاً من الهند وطريق التوابل والأماكن المقدسة وكنوز الآثار أصبح الذهب الأسود هو المصدر الذي تصارعت حوله وعليه السياسات الكبرى والصغرى.لذا كان لابدّ من حدوث متغير على ظاهر الحركة الإستشراقية وغيرها من ميادين الفكر والثقافة ومناهج البحث، بوصفها الركن الأساس في بحث ودراسة الشرق الإسلامي الناهض إقتصادياً وبسرعة مذهلة والمتخلف سياسياً لسيادة الدكتاتوريات المحلية العائلية والقبلية. فضلاً عن كونها (أي المنطقة) بحاجة ماسّة إلى أدوات الحضارة الغربية وذلك لطغيان البداوة على الكثير من مكوناتها السياسية والإجتماعية، والقصد من الحضارة الغربية ما له علاقة بالتقنيات والمناهج العلمية وتنظيم المؤسسات وبنائها.لذلك تميّزت هذه الحقبة بسمة واضحة وهي الاهتمام بعرض الإستشراق ومساهمات المستشرقين من زاوية غربية وأمريكية مقابل الكتابات العربية والإسلامية المتنوعة والمتزايدة ومقابل النشاطات الثقافية إن كانت على صيغة مؤتمرات أو ندوات أو لقاءات واجتماعات؛ وهي الأخرى شهدت تصاعداً وتزايداً في السبعينيات. تلك النشاطات التي كانت في أغلبها ترسم الإستشراق رسماً عدائياً، فالإستشراق ـ هنا ـ كان متحيّزاً ومتعصباً واستفزازياً في تفسيراته ورؤاه ضد الإسلام والقرآن الكريم وضد سيرة سيد الأنام محمد وضد الحضارة الإسلامية بصورة عامة. فضلاً عن عدوانية الإستشراق بوصفه السلاح السياسي الذي كان يخدم الاستعمار بريطانيا كان أو أمريكيا أو سوفيتيا. وهي حال واضحة في كتاب العالم الفلسطيني الأصل الأمريكي الجنسية والسكن أدوارد سعيد والمستشرق في انتمائه إلى المدرسة الأمريكية، الكتاب الذي صار مصدر مناقشة وتعدّد في المواقف والآراء حوله وعنوانه (الإستشراق)[1]. إذ حدّد البروفسور سعيد زوايا الكتاب وأهدافه بالمفهوم السياسي البريطاني على وجه الخصوص.

(١) سعيد، أدوارد: الاستشراق (ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية بيروت ١٩٨١).

في حقبة الثورة النفطية وظهور قوى استعمارية جديدة على ساحة التصارعات السياسية للدول الأجنبية راح عدد من المستشرقين الاوائل يقفون في دراساتهم على معالجة الإستشراق والمستشرقين بصيغ الوصف والتعريف والتقديم والإطراء على الجهود المبذولة من المستشرقين الأوائل. فألّف المستشرق ساذرون R.W.Southern[١] كتاباً درس فيه وجهات النظر الغربية بخصوص الإسلام ديناً وحضارة إبان العصور الوسطى مسلّطاً الضوء على التعريف بالكتابات الأجنبية وكتّاب العصور الأوربية الوسطى عن الإسلام، ومبيناً ـ وهو الأمر المهم ـ تطرّف وعدم موضوعية المؤلفات التي كتبت بتأثير من الكنيسة والمؤلفات البيزنطية ونشر الكتاب عام ١٩٦٢. وفي هذا الاتجاه ولكن بمدة أقدم من كتاب المستشرق ساذرون أنجز المستشرق الألماني المعروف يوهان فوك J.W.FUCK دراسة باللغة الألمانية وترجمت إلى اللغة العربية من الأستاذ عمر لطفي بعنوان (تاريخ حركة الإستشراق والدراسات العربية الإسلامية في أوربا حتى بداية القرن العشرين)[٢]. والأصل الألماني للبحث يترجم إلى (الدراسات العربية في أوربا في القرن العشرين المنشورة في عام ١٩٥٥).

Die arabischen studien in Europa bin im de Anfang des 20 Jahrhundert (1955).[٣]

وبعد عدة سنوات شارك هذا المستشرق في مؤتمر (مؤرخو الشرق الأوسط)[٤] الذي عقد في لندن عام ١٩٦٣ ثم نشرت أعماله وبحوثه في عام ١٩٦٤ بتحقيق كل من البروفسور المستشرق برنارد لويس B.Lewis والبروفسور المستشرق هولت P.Holt وعنوان بحث المستشرق Fuck (الإسلام كمشكلة تاريخية في التدوين التاريخي الأوربي منذ عام ١٨٠٠)[٥]. وقد ركّز فيه (فوك) على الدراسات الأوربية التي تمّ إنجازها خلال مدة عصر النهضة الأوربية وبالتحديد حول مؤلفات المدة التنويرية

---

(1) Southern, W. Western Views of Islam in the Middle Ages (Harvard 1962).

(2) Fuck, J. Die arabischen studien in Europa bin in den Anfang des 20 Jahrhundert (1955).

(3) Ibid.,

(4) B. Lewis and P.M. Holt (Eds.) Historians of the Middle East (Great Britain 1964).

(5) Fuck, J.W. " Islam as an historical problem in European historiography since 1800" in Historians of the Middle East pp. 303-314.

Enlightment وتلك التي أنجزت إبان المدة الرومانتيكية .Romantic Epoc[1] ومن بينها وقف المستشرق فوك على مؤلفات أبراهام جيجيه A. Geiger وتاريخ سيرة النبي وتاريخ نشوء الخلافة وتدهورها وسقوطها للمستشرق البريطاني الأسكتلندي وليم موير W, Muir وتاريخ مايكل إماري Michele Amari وتاريخ يعقوب بوركهاردت Jocob Burckhardt والمستشرق الفرنسي المعروف بنظريته الجنسية (Race) آرنست رينان A. Renan والمستشرق الفرنسي المشهور غوستاف لوبون G.Le Bon والمستشرق الدبلوماسي الفرنسي جوبينو Gobineau والمستشرق الألمانيَ تيودور نولدكه Th. Noldeke والمستشرق الإيطالي الذائع الصيت مؤلف موسوعة حوليات الإسلام Annales ليون كايتاني Leon Caetani وغيرهم من المستشرقين الذين يمثّلون تلك الحقب. وألّف المستشرق البريطاني آربري A.J, Arberry المتوفى عام ١٩٧٠ كتاباً تناول فيه إسهامات مدرسة جامعة كمبردج للدراسات العربية[٢]. والبروفسور آربري أستاذ اللغات الشرقية، الفارسية، في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية في الجامعة المذكورة. وركّز البروفسور آربري على إنجازات مدرسة الإستشراق هذه في الدراسات العربية. وآنفا أوضحنا أن كرسي اللغة العربية قد تأسّس في هذه الجامعة في منتصف القرن السابع عشر للميلاد. ومما يستحّق الذكر أن المستشرق الإنجليزي المعروف سيمون أوكلي S.Ockley مؤلف كتاب بعنوان (تاريخ السراسين History of the Saracens) بمعنى تاريخ العرب، يمثل هذه المدرسة إذ توفي سنة ١٧٢٠)[٣]. فالمستشرق آربري درس أوكلي ومؤلفاته ولاسيما (تاريخ السراسين) المؤلف بجزأين مشيراً إلى مضامين الكتاب. فقد احتوى على فصول حول التاريخ السياسي والحضاري للعرب. والمهم في الأمر أن آربري قوّم تاريخ أوكلي في اعتماده على المصادر التي تمّ تحقيقها ونشرها آنذاك؛ ومن أهم هذه الموارد ما تمّ تحقيّقه من مخطوطات إسلامية، فضلاً عن القرآن الكريم بترجمة المستشرق البريطاني جورج سيل (المتوفى ١٧٣٦) المنشورة في لندن عام ١٧٣٤. وذلك لأن جورج سيل قد استند إلى تفاسير إسلامية

---

(1) Ibid., p. 303-304, 305-308.

(2) Arberry, A.J.: The Cambridge School of Arabic (Cambridge 1948)

وقد كتب أيضاً بحثاً بعنوان (المستشرقون البريطانيون) لندن ١٩٤٦.

(3) Holt, P.M. "the treatment of Arab history by Prideaux, Ockley and Sale" in Historians of the Middle East, pp. 295-296.

للقرآن الكريم، كما أنه كتب مقدمة مستفيضة عن تاريخ السيرة النبوية وعن تطوّر الدعوة الإسلامية. فاعتماد أوكلي في معلوماته على المصادر الإسلامية وعلى ترجمة سيل للقرآن الكريم يدلّ دلالة أكيدة على تأثر آرائه وتفسيراته بتلك الكتابات ولاسيما ما كتبه سيل في مقدمته. والواقع أن مقدمة سيل التاريخية قد أستند اليها الكثير من المستشرقين. فقد وصف المستشرق البريطاني بودلي ترجمة سيل للقرآن الكريم بوصفها ترجمة جيدة نهج فيها سيل منهجاً وأسلوباً بشكل موضوعي. كذلك وقف آربري في دراسته على عمل المستشرق البريطاني الآخر ادوارد بوكوك E.Pocock. ويعدّ بوكوك هو الآخر من المستشرقين القدامى إذ توفي سنة ١٦٩١، وهو مؤلف كتاب (نماذج من التاريخ العربي أو عيّنات من التاريخ العربي Specimen[1] historiae Arabum. وأعقب على هذا الموجز بعدة دراسات مفصلة من التاريخ السياسي والأدبي والعلمي والديني للعرب.ومما له علاقة بهذا الموضوع أن أدوارد بوكوك قد ترجم تاريخ ابن المكين المؤرخ المسيحي. ويعدّ هذا التاريخ من النصوص التاريخية القديمة التي حقّقت وترجمت ونشرت في أوكسفورد.وكذلك تاريخ ابن العبري. فضلاً عن إطّلاعه على مخطوطة المختصر في تاريخ البشر لأبي الفداء ومخطوطة ابن دقماق (الجوهر الثمين في سيرة الخلفاء والسلاطين)[٢] وغيرها. وحقيقة أن أوكلي قد جهد في البحث عن المخطوطات في مكتبة بودليان ومكتبة جامعة كمبردج وهما يحتويان على مجموعات كبيرة من المخطوطات في القرن السابع عشر. وكتب البروفسور برنارد لويس B.Lewis دراسة حول (المساهمون البريطانيون في الدراسات العربية)[٣]. كما أسهم البروفسور هولت في المؤتمر هذا ببحث عنوانه (دراسات عن المؤرخين العرب في بريطانيا القرن السابع عشر للميلاد: خلفيات وأعمال كل من أدوارد بوكوك)[٤]. ونشره في عام ١٩٥٧. ثم كتب بحثاً بعنوان (معالجة كل من همفري بريدو H.Prideaux وأوكلي وسيل لتاريخ العرب)[٥]. وكما ذكرنا آنفا فإن المستشرق هولت قد درس مؤلفي همفري بريدو الأول منهما كان بعنوان (تاريخ تدهور وانهيار الكنيسة

---

(1) Ibid., pp. 291-293.

(2) Ibid., p. 269.

(3) Holt, P.M."The treatment ".Op.Cit. Pp.290-302,idem, "The Study of Arabic Historians in the 17th century England:-The background_and the work of Edward Pocock" in BSOAS(1957).

(4) Ibid.,

(5) Ibid., P.291

الشرقية)[1]. الذي غطّى المدة من سنة ٦٠٢م إلى ٩٣٦م ومفاده أن الربّ هو الذي بعث السراسين (ويقصد العرب) ليكونوا الوسيلة المعبّرة عن غضبه. أما كتابه الثاني فتناول فيه حياة محمد والتاريخ الإسلامي المبكر الذي يتضمن قسمين، خصّص للقسم الأول وعنوانه (حياة محمد The Life of Mohomet)[2] وشغل هذا الجزءحوالي مائة وخمس وعشرن صفحة وأعطى عنواناً للقسم الثاني (رسالة إلى القائلين بمذهب الربوبية .Letter to the Diests

كما أن البروفسور هولت ناقش كتاب سايمون أوكلي (تاريخ السراسين)، وهو المؤلف من جزأين وخصّص الجزء الأول منه الذي طبع في لندن عام ١٧٠٨ بعنوان (فتح سوريا، وبلاد فارس ومصر من قبل السراسين) إما الجزء الثاني فكان بعنوان (تاريخ السراسين). ودرس أيضاً ترجمة القرآن لجورج سيل الذي وصفه البروفسور هولت بأنه كان مستعرباً إنجليزياً مشهوراً .Notable English Arabist ووصف ترجمته للقرآن الكريم بأنها معلما Landmark في تاريخ الدراسات القرآنية [3]. وقد تناول في مقدمته التاريخية لترجمته جانبين الأوّل منهما ركّز فيه على مدة الجاهلية؛ بينما وقف بالتفصيل في الجانب الثاني منها على حياة رسول الله معتمداً على ابن المكين وأبي الفداء وابن العبري. كذلك درس المستشرق المعروف دنلوب D.M. Dunlop[4] التدوين التاريخي الأوربي في بحثه الموسوم بـ (بعض الملاحظات بشأن تاريخ الخلفاء الذي ألفه المستشرق الألماني غوستاف فايل G, Weil) الذي يقع في ثلاثة أجزاء. وقد شارك دنلوب بهذا البحث في مؤتمر (مؤرخو الشرق الأوسط). والمعروف أن المستشرق فايل المتوفى عام ١٨٨٩م قد صنّف كتاباً عن حياة النبي بعنوان (محمد النبي: حياته ومعتقده)

Mohammed der Prophet sein Leben und seine Lehre [5]

وقد شهر الكتاب بعنوان (حياة محمد). واستند فيه إلى مجموعة من مؤلفات السيرة

---

(1) Ibid., Pp.292-98

(2) See Holt," The treatment" Op.Cit.P.298.

(3) Dunlop,D.M." Some remarks on Weil,s History " Op.Cit.,Pp.315-29.

(4) Ibid.,P.316

(5) Ibid.,P.324.

النبوية نظير: سيرة ابن هشام، وكتاب السيرة الحلبية، والسيرة للبكري، فضلاً عن ترجمته لسيرة ابن هشام وجعلها ملحقاً بكتابه محققاً لها ومعقباً عليها. وقد دأب البروفسور فايل على المقارنة في دراسته بين الإنجيل والتلمود والقرآن. ودرس المخطوطات التي أستند عليها مثل: ذخيرة العلوم ونتيجة الفنون للبكري، ومخطوطة تاريخ الخميسي في أحوال أنفس النفيس للدياربكري، ومخطوطة تاريخ الخلفاء للسيوطي، ومروج الذهب للمسعودي، وتاريخ الإسلام للذهبي، وكتاب المعارف لابن قتيبة، وكان مطّلعاً على مؤلفات البلاذري[١].

وكتب البروفسور صليبي K.S.Salibi بحثاً عن مؤلفات المستشرق المبشر الفرنسي هنري لامانس H.Lammens بشأن الإسلام[٢] وسوريا شارك فيه في المؤتمر المذكور آنفا. كذلك ألف المستشرق مكسيم رودنسون بحثاً وافياً وشاملاً حول الدراسات الغربية بعنوان (الصورة الغربية والدراسات العربية الإسلامية)[٣] نشره ضمن بحوث تراث الإسلام المطبوع في الكويت عام ١٩٧٨. وصنّف أيضاً كتاباً بعنوان (جاذبية الإسلام)[٤] ترجمه إلى العربية الأستاذ التهامي مورقي ونشر في بيروت عام ١٩٨٢، وللمستشرق الأمريكي بيتر جران بحث حول (الإستشراق الأمريكي والدراسات الإسلامية)[٥]. ونشره في عام ١٩٧٩. وألف المستشرق الإسرائيلي إيتان كوهلبرغ E.Kohlberg بحثاً مسهباً عن الدراسات الغربية بشأن التشيع الإمامي ونشره في كتابه

---

(1) Salibi,K.S. "Islam and Syria in the writings of Henri Lammens" in Historians of the Middle East,Pp.330-41.

(٢) مكسيم رودنسون: "الصورة الغربية" في كتاب تراث الإسلام، تحقيق د. شاكر مصطفى، الكويت ١٩٧٨ص٢٧-١٠٠.

(٣) رودنسون، مكسيم:- جاذبية الإسلام.ترجمة مورقي التهامي (طبعة أولى، بيروت ١٩٨٢.

(٤) بيتر جران:- حركة الاستشراق وتطور الرأسمالية في الولايات المتحدة. في مجلة الثقافة عدد ٤ لسنة ١٩٧٩ص٥٧-٧٩؛ وكذلك هناك دراسات أخرى عن الاستشراق الأمريكي نظير الطعمة، د. صالح جواد: التلقي الأمريكي للأدب العربي. في مجلة الاستشراق، بغداد، عدد ٢السنة١٩٧٨. الدعمي، د. محمد:- جذور الاستشراق الأمريكي. في مجلة شؤون أجتماعيةعدد ٤٤ لسنة ١٩٩٤.

(5) Kohlberg,E. "Imam and Community in the Pre-Ghayba Period" in Said Amir Arjomond (1988).

القيم (الأمام والمجتمع قبل مدة الغيبة)[1]. وللمستشرقة الألمانية رودي بارث دراسة قيّمة حول (الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية)[2] وترجمها الدكتور مصطفى السباعي. وأخيراً وليس آخرا فينبغي علينا إدراج الدراسة المهمة التي حقّقها البروفسور أدوارد سعيد E.Said بعنوان (الإستشراق)[3] المنشور عام ١٩٨٠، الذي أثار فيه عدّة محاور مهمة عن الإستشراق السياسي المرتبط بالإستعمار ولا سيما البريطاني.

فالملاحظة الأساس التي نختتم بها هذا الفصل تفيد بأن الدراسات العربية والإسلامية عن الإستشراق قد تميّزت بجملة مزايا أهمها:- أنها كانت وصفية ودفاعية، دفاع عن الإسلام ونبي الأمة ضد تخرّصات وادعاءات المستشرقين بشأن التراث الإسلامي، وهي أيضاً دراسات وصفية لأعمال المستشرقين ودراساتهم، وحول أسماء عدد منهم. إنها بالفعل دراسات مهمة في التعريف بعطاءات المستشرقين العلمية. كذلك تميّزت بظهور دراسات فكرية عن الإستشراق وتوجّهات المستشرقين في دراسة التراث الإسلامي.

ومهما يكن من أمر فهذه الحال إذن تعدّ دعوة للباحثين لإنجاز المزيد من الدراسات باللغة العربية أو ـ وهو الأهم ـ باللغات الأوربية كالتي اضطلع بها البروفسور أدوارد سعيد. دراسات تخضع الحركة الإستشراقية من زوايا أخرى غير الزاوية المعتادة في كتاباتنا المتمثّلة بالدراسات الدفاعية والهجومية، وأن نبذل الجهود في إضاءة زاوية تركّز على التفسيرات والرؤى التي نفهمها أنها متعصبة ومتشنجة إزاء تراثنا ونبينا وبصورة خاصة تلك التي طرحت في مؤلفات الجيل الأول من المستشرقين.كذلك محاولة تشخيص المشتركات بين عناصر هذه الرؤى السلبية ومعرفة المصادر التي اعتمدوها لعرض هذه المصادر أو المرويات على المصادر نفسها أو على مصادر إسلامية أخرى أقدم منها في زمن التأليف أو معاصرة للحدث التاريخي الخاضع للدرس وللرؤية الإستشراقية وذلك بهدف إبراز الآتي لأنه في غاية الأهمية:-

---

(١) بارث، رودي:- الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية:- المستشرقون الألمان منذ ثيودور نولدكه (ترجمة د. مصطفى ماهر؛ القاهرة ١٩٦٧).

(٢) سعيد، د. أدوارد:- الاستشراق، المصدر السابق.

(3) See William I. Hedges.W.Irving an American Study 1802-1832 (Baltimore 1963) P.12.220.231.

١- مدى صحة وموثوقية نقل المستشرقين للروايات. بمعنى هل أورد هذا المستشرق أو تلك النصوص العربية بأمانة وصدق وموضوعية أم أنه حرّف فيها قليلاً أو كثيرا بغية استثمارها في استنتاجاته؟ وهل شوّه في بعض الكلمات إما بتشويه في ترجمة النصّ أو بمجموعة النصوص؟ وفي الغالب سيعثر المتّتبع على نماذج من سوء فهم النصّ أو سوء ترجمة لبعض التعبيرات الدارجة في اللغة العربية. والواقع أن بعض المستشرقين ممن استند في استنتاجاته لرواية أحداث مهمة الى استنتاجات جاهزة توصّل اليها الغير ممّن سبقه.لذلك فالخطأ أو سوء الفهم إنما هو في حقيقته نتيجة مباشرة لهذه العملية النقلية المقلّدة.

٢- لقد أشرنا في النقطة آنفا إلى المستشرقين الأوائل أو القدامى فلماذا هذه الإشارة؟ أقول إنه من المرجّح جداً بأن هؤلاء نظراً لقدم كتاباتهم، ولأنهم كانوا يتمتعون بمكانة علمية عالية بين أوساط جيلهم القديم من المستشرقين تميّزوا بمرجعيتهم أو بأنهم مراجع موثوقة بالنسبة الى من جاء بعدهم فكانوا الأساس في التأثير على العقلية الغربية وعلى التفكير الأوربي بخصوص الكثير من العناصر المهمة في الإسلام والتراث الإسلامي وسيرة رسول الأمة في موضوعات أمثال:-- نزول الوحي، النبوة، صفات النبي الجسدية والأخلاقية، زيجاته، معاركه ضد يهود المدينة، مكانة الأمام علي وآل بيت الرسول، عملية جمع القرآن الكريم والحديث الشريف، موقف النبي من تدوين الحديث في حياته وغير ذلك في الكثير من المجالات البالغة الأهمية في تاريخ السيرة النبوية وتاريخ القرن الأول للهجرة. عندئذ تتكرّر الأفكار والتفسيرات والمتعصبة عند المستشرقين بفعل هذا العامل من الركون كلياً الى الأفكار الجاهزة السابقة دون وعي أو دون متابعة دقيقة بعيدا عن أي جهد في تحقيق حصيف للمصادر الأساس التي جاء فيها مثل تلك المرويّات أو التدقيق في مدى صحة أسانيدها أو مدى صحة محتوياتها. والمستشرقون القدامى في الغالب يستندون الى مصادر محدودة ومعينة أو الى روايات شاذة ومعدودة سبق أن حقّقت في القرن السابع عشر للميلاد وظلّت دون غيرها تمثّل المكتبة الوحيدة لدراساتهم. في الوقت الذي تمّ فيه العثور على مخطوطات ومصادر إسلامية أكثر أهمية من حيث علاقتها بالموضوع تحت البحث وكذلك من حيث زمن تأليفها.

٣- والأكثر أهمية في مسألة مناقشة موارد الروايات التي أدّت دورا أساسيا في وصول المستشرقين الى استنتاجات ربما تكون غير صحيحة أو غير موضوعية، وأقصد

هاهناموارد الروايات التاريخية. إذ قد يجد المتتبّع بأن سلسلة أسانيد الرواة في هذه الرواية أو تلك إنما يشوبها الضعف أو الإرسال أو بكونها سلسلة إسناد معضل أو سلسلة إسناد أحد الرواة البارزين فيها كذّاب أو غير ثقة أو وضّاع. وفي حالات يكون سند هذه الرواية المعتمدة من المستشرق غير متواتر أو تكون أحادية السند أو مقطوعة السند أو أن تكون ثقة بغير نفسها، أو أنها لا تصل في سندها الى الحلقة الأساس في الحديث الشريف والرواية التاريخية. جميع هذه الإستفهامات والإعتبارات وغيرها مهمة جدا؛ وربما تخفى على المستشرق بقصد أو بدونه، لكنها كحال بحثية تتبلّور وتتطّور الى رأي وأحيانا الى نظرية تبقى راسخة ودائمة التكرار والأستشهاد بها. وهو أمر ملاحظ كثيرا عند المستشرقين وغيرهم من الباحثين غير المدقّقين في ظروف والنسيج الداخلي للرواية التاريخية.

٤- وواقع الحال فما تمّ إنجازه من دراسات باللغة العربية يعوزه الدقّة ويرجع ذلك الى أهمالها معيار التحقيق في النصوص التاريخية ولعله - وهو الأكثر خطورة - عدم اعتمادها على المرويات الأساس والأصلية من أجل الوقوف على صحّة مزاعم وادّعاءات هذا المستشرق أو تفسيراته. وكذلك فالدراسات العربية الحديثة - إن صحّ وصفها بالدراسات العلمية - تلجأ مع كلّ الأسف في كثير من الأحايين الى الإستناد الى النصوص الإستشراقية المترجمة الى اللغة العربية فقط وتهمل كليّا الرجوع الى الأصول الإستشراقية بلغاتها الأصلية التي كتبت بها، ويعدّ هذا نقصا واضحا وخطيرا ولاسيما في المسائل الساخنة في تاريخ السيرة النبوية. إذ تكشّف لنا في أثناء البحث تصرف محتمل من المترجم وهو تصرف ذاتي في ترجمته بعض الكلمات والعبارات الواردة في أصل لغة المستشرق، وفي أحيان أخرى وبسبب عوامل ضاغطة كأن تكون مذهبية أو دينية أو سياسية قد يلجأ المترجم - أي مترجم - الى حذف أو بتر أو إغفال فكرة ما أو أفكار ينصّ عليها المستشرق لأهميتها من زاويته وموقفه ووجهة نظره. وفي أحيان ربما يهمل المترجم ترجمة هذه الأفكار لخطورتها أو لتطرفها أو لحساسيتها الشديدة من وجهة نظر المترجم طبعا. فهذه الخطورة أو الحساسية قد تدفعه الى عدم ترجمتها. وبغية أن تكون الدراسة رزينة ودقيقة، وأن تكون مواقفنا من هذا المستشرق أو ذلك الرأي الإستشراقي صيحة في الترجمة وموضوعية، علينا دراسة النصوص الإستشراقية القديمة من أصولها الحقيقية وذلك لإظهار زيفها أو موثوقيتها في هذا الإستنتاج أو خلافه بطلان ذلك التفسير الذي توصّل اليه المستشرق. وهي حال جديّة

وفي غاية الأهمية.

ونقص آخر موجود في الدراسات التاريخية العربية المتعلقة بالمستشرقين ذلك المتمثّل بإهمالها التحقّق من الخلفيات التاريخية الأوربية والأمريكية من أجل التدقيق من صحّة وإثر هذا الدافع أو من مجموعة من الوافع المباشرة والأساس التي أدّت دورا ضاغطا في اندفاع المستشرقين البريطانيين أو الأمريكان أو الأسرائيليين الى دراسة حقول معرفية معينة ومحدّدة من التاريخ الإسلامي دون غيرها. فالمستشرقون الألمان قد عنّوا عناية خاصة بدراسة الفرق الإسلامية والفقه الإسلامي والحركات المعارضة في التاريخ الإسلامي. في حين اهتم المستشرقون الفرنسيون في ميدان التطورات الفكرية والثقافية ودراسة التمدن الإسلامي ولاسيما في منطقة شمال أفريقيا والمغرب العربي. وتوجّهت الدراسات البريطانية من بين توّجهاتها دراسة التشيع في إيران والعراق، فضلا عن دراسة الفرق التي خرجت من الخطّ الإمامي الإثني عشري. وكذلك عنايتها بدراسة العقيدة والشريعة في الإسلام وغير ذلك بالنسبة الى المستشرقين الآخرين من دول أخرى. ولهذا السبب أو ذاك قد يصل المتتبع والباحث الى محصّلة مفادها أن هناك تداخلا بين الدوافع أوالبواعث التي شّجعت المستشرقين الى دراسة تراث الشرق. فمن المحتمل أن يكون هذا المستشرق البريطاني قد انطلق في تفسيره من زاوية دينية متشدّدة أو دينية محافظة فاعلة في حركة التبشير. في المقابل قد يكون هناك مستشرق بريطاني آخرينطلق من زاوية ارتباطاته السياسية أو الدبلوماسية في تفسيراته ورؤاه بالنسبة الى مفصل من مفاصل التاريخ الإسلامي. وربما هناك مستشرق بريطاني ثالث متوجه في بحوثه من منطلق علمي في الث والتحري؛ وهكذا هو الحال بالنسبة الى مستشرقين غيرهم من بلدان أخرى.

فدراسة الحركة الإستشراقية في الولايات المتحدة مثلا ينبغي أن يدخل الباحث والمتحري في منهجه البحثي مزيجا أو خليطا من المدخلات والعناصر المتنوعة بحكم تنوّع الجذور الإجتماعية والثقافية والأكثر أهمية الدينية المكوّنة لجموع النازحين والمهاجرين من أوربا وبريطانيا وألمانيا وأسبانيا وأيرلندا الى أمريكا؛ وبكلمة أخرى فإرهاصات الإستشراق الأمريكي كانت سببا حقيقيا لتوجّهات المستشرقين الأوربيين سواء أكان ذلك متمثّلا بالاهتمامات الأوربية الخاصة بهذا المستشرق أو ذاك أم بمجارات الاهتمامات الأوربية المختلفة. ولنضرب مثالا على ذلك في حال المستشرق واشنجتون أرفنج W. Irving فإنه عند مطالعاته لدراسات المستشرقين

البريطانيين الأوائل نظير المستشرق المبشر همفري بريدو وسايمون أوكلي وجورج سيل ؛ وكذلك دراسات المستشرق الألماني غوستاف فايل G. Weil حول (حياة محمد)[1] أو دراسته الأخرى (تاريخ الخلفاء)، بدأ ينجذب نحو دراسة حياة الرسول الأعظم أسوة بدراسة بريدو وأوكلي وجان جانيه وتوماس كارليل وغوستاف فايل وغيرهم. ولهذا سطّر هذا المؤثر واقعيا عندما استقر في أسبانيا ممثلا دبلوماسيا لبلاده. فشرع بإجراء مجموعة من الدراسات التي تظهر مدى إعجابه بالمنجزات الإسلامية في أسبانيا فكتب عن غرناطة وقصر الحمراء والفتوح الإسلامية لأسبانيا.فهو لم يكتب عن بنسلفانيا أو واشنطن مثلا إنمّا عن الحضارة الإسلامية. وانطلاقا من خياله الأدبي وأسلوبه القصصي فقد صار قصر الحمراء هدفا لدراسة خاصة. وكذا الحال في توجّهه للكتابة عن حياة رسول الله؛ فهو هاهنا كان متأثرا بالمؤثرات الأوربية أيضا. إذ اطّلع على مؤلفات معينة قد صنّفت عن سيرة الرسول الكريم من أمثال :- كتاب جان جانيه J. Ganier بالفرنسية وعنوانه (حياة محمد Vie de Mohammed وكتاب بريدو الذي اختار له العنوان The true nature of imposter fully displayed in the life of Mohammet، وكتاب فايل(حياة محمد)[2]. فتأثر أرفنج الكبير بهذه المؤلفات الأوربية التي استندت الى مصادر إسلامية محدودة وقليلة أدّت به الى تكرار المزاعم التي تبنّاها المبشر بريدو وجان جانيه وغيرهم. كذلك علينا أن لا نقلّل من عامل موافقة قصة السيرة النبوية المشّرفة التاريخية ومطابقتها لذوق أرفنج الأدبي وميله الى القصص والمسرحيات بشكل خاص. فقد كان أرفنج قبل ذلك من المهتمين بكتابة مجموعة من قصص الشخصيات الأمريكية بمحتوى يتخلله عنصر الخيال، مع أنه كان يخضع كذلك لطبيعة أسلوبه النقدي والتهكمي عند عرضه شخصيات تلك القصص. وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأن جميع هذه المؤثرات والخلفيات القابعة في اللاشعور في عقلية أرفنج قد هيأت توجهه في الكتابة عن سيرة رسول الله؛ فعلينا أن نحسب لهذه المؤثرات حساباتها عند عرض موقفه من السيرة ومن حياة الرسول الخاصة ومن رأيه في موضوع زيجات النبي. زيادة على ذلك فالمستشرقون ولاسيما الأسكتلنديون، ومن بينهم أرفنج الأسكتلندي الجذور، أمثال توماس كارليل ووليم موير ومونتغمري وات قد انجذبوا ـ بدافع قومي ـ الى تمجيد البطولة السياسية في تاريخ أسكتلنده في علاقتها ببريطانيا،

(1) Pierre,Irving M.The Life of Washinton Irving (Butnam,1863) P.348-349.

(2) See Ibid. P.349,355-357.

الى اختيار شخصية رسول الله وسيرته التي تكشف تاريخيا عن أمانته ومصداقيته وصدق دعوته ضدّا بالديانة الوثنية وضدّا بالجاهلية وفي عدم رضوخه للتحديات الإجتماعية والسياسية التي مارسها المجتمع الكافر الوثني، مجتمع قريش المتنفّذ في مكة. وكذلك وصف إرادته الصلبة وعزمه الراسخ الذي لم يعرف التعب والكلل في سبيل نشر رسالة الإسلام باختيار من العناية الآلهية. وهذا دون أدنى شك يعدّ عنصرا مهما آخر يضاف الى المؤثرات السابقة الأخرى في مدى تفاعل أرفنج المولود في نيويورك ومن أب وأم أسكتلنديين مهاجرين الى أمريكا عام١٧٦٣(١).

فالخلاصة أنه من الضروري جدا للباحثين العرب والمسلمين إذا ما أرادوا التخطيط أو الشروع في دراسة الحركة الإستشراقية ـ إن كانت على هيأة مدرسة واحدة أو تفسير إستشراقي عام أو مجموعة من المدارس الإستشراقية ـ الأخذ بنظر الإعتبار الحقبة التاريخية التي تمحورت حولها وتركّزت فيها مساهمات هذه المدرسة أو تلك؛ فضلا عن التطورات الثقافية والسياسية والدينية التي ربما أدّت دورا مهما في تسيير وتوجيه هذه الدراسات. فمثلا كانت كلّ من بريطانيا وفرنسا من القوى الإستعمارية القديمة الكبرى التي جدّت في التغلغل في الشرق بهدف السيطرة والإستحواذ، فعلى هذا الأساس تكون توجهات مستشرقيها أو ميادين اهتماماتهم مرتبطة بدرجة أو أخرى بهذه الخارطة السياسية الواسعة من جهة أو الضيقة، ولذلك وصفت تلك الدراسات بالعمق والتنوع. في الوقت الذي نشهد فيه نشاطات الإرساليات التبشيرية الأمريكية في مدن ومناطق مختلفة من الشرق الأوسط ترجع بصورة رئيسة الى ما تميّز به المشروع السياسي الأمريكي في الربع الأول من القرن التاسع عشر. كان المشروع آنذاك ضيقا سياسيا فلم تكن الخارطة السياسية الأمريكية أو بالأحرى خارطة الأطماع الأمريكية واسعة بل خلاف ذلك كانت أمريكا سياسيا تركّز على الداخل الأمريكي، فضلا عن أنها كانت منشغلة في التنمية الصناعية والتجارية والأمنية بغية إقرار الأوضاع الداخلية المرتبكة على إثر السنين الفاصلة من الحروب العنصرية الدموية والضروس(٢).

---

(1) See (Irving) in Encyclopedia Brittanica,Volume XII. P. 691. Stanley T. William;The Life of Washington (New York,1973) Pp. 215-2177.

(٢) ينظر ويتني؛ فرانسيس: موجز التاريخ الأمريكي (القاهرة١٩٦٤)، صفحة ٩-١٠.